مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

عبده خال

أنْفُس

رواية

دار الساقي

مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل رواية:

(أنفس)

ل «عبده خال»

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

تنسيق:

مروة جمال – جمهورية مصر العربية

أنفس

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- قالت حامدة: أساطير حجازية
- قالت عجيبيّة: أساطير تهامية
- الأوغاد يضحكون
- الموت يمر من هنا
- الأيام لا تخبئ أحدًا
- ترمي بشرر
- صدفة ليل
- لوعة الغواية

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمًّا بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكرًا لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي جميع الحقوق محفوظة الطبعة الورقية الأولى، 2019 الطبعة الإلكترونية، 2019
ISBN-978-614-03-2106-9 دار الساقي بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 5342/113.

الرمز البريدي: 6114 - 2033 هاتف: 961 1 866442، فاكس: 961 1 866443

info@daralsaqi.com :e-mail

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على DarAlSaqi@ دار الساقي Dar Al Saqi

إلى امرأة تسللت من بين لجج الطين لتكون هي الحياة.

وحي... د بن ظاهر

60 = ف ظهرت عارية تمامًا...

... عارية كأنّها جذع شجرة أخصب أغصانًا مخضرة هبطت من الجنة.

لم يكن عريها متناسقًا مع البيئة المحافظة التي ظنّ أهلها أنّهم أمام إناء من عسل الكل مدعو لارتشاف رحيقه.

عارية تمامًا يغطي جيدها وجزءًا من نهدها الأيمن رضيع لم تستر جلده الغض أيّ قماشة سواء أكانت رطيبة أم سميكة، فظل بكاؤه مرتعشا، تحوطه يدها المبتورة من غير استواء، حافظت يدها الصحيحة على إسناد الرضيع والإمساك ببطاقة أحوال لم تستطع أيّ عين رؤيتها بوضوح.

تسير في خطوط متثنية بقدمين حافيتين موحلتين وَقَدٍ صُبّ في قالب منتصب لا ميل فيه سوى اجتذاب ردفيها لخاصرة ضامرة تتموسق بإتقان صعودًا وهبوطًا كلّما جست قدميها رطوبة الأرض كأنّها تؤدي لحْنًا تعمد كسر انسيابية عزفه من درجة التون إلى الربع محدثًا روعة الاندماج الموسيقي التام من غير نشاز.

ظهرت كإحدى بطلات الأساطير البابلية الممزوجة بشيء من حرفية الإغريق، فجمعت السحر وغموضه، وفي عريها المشقق، تجمد على بدنها وأطرافها طين لازب.

كان وقت ظهورها بين الأصيل وصفرة الشمس الغاربة. زمن سرب ساعاته طويلة لم يُبقِ إلّا على دقائق قصيرة، فغدا الوقت كبركة ورد تبقى في حوضها طفيف من ماء موحل. وقت مقطوع من نهار بارد توعد بليل قارس. ورغم قصر الوقت، استقطب أعدادًا مهولة لتملأ تعرجات الشارع العام ويفيض بقية الناس بين الأزقة الجانبية المحاذية للموكب الجامع، وكلّ من وجد فرصة في زحمة السائرين خلف المرأة العارية نفر إلى الأمام ليكون في مقدمة من يُشاهد فتنة تلك المرأة المتجاسرة للخروج عارية، ناثرة موسيقا مشيتها على وقع أرداف ثقيلة. ثقل ردفيها لم يخذل تناغم مشيتها بل منحها تموج الأمواج الكسلى، فمشت غير مكترثة بتهدّل خصلات شعرها المسافرة في اتجاهات شتّى. لقد حرصت على زمّ شفتيها كأنّها تضبط إيقاع نهديها كي لا يُغامرا بالرقص الماجن المعكر بالطين. ومن واجه عينيها من السائرين تراكمت تسبيحاته قبل أن يُحيط ببقية سحرها الآسر.

لم يتقدّم أحد من تلك الأعداد الغفيرة لإلقاء شال أو لحاف أو ثوب لستر عريها. الكلّ سعوا إلى إبقاء تلك الفتنة تتنزه كصافنات الجياد فلا تعرف أهي واقفة أو على أهبة الاستعداد للانطلاق. كساها صمت مهيب يقابله تهيؤ الجميع لمعرفة سرها أو اقتناص شيء من جمالها الخلّاب. أثناء سيرها –

ومن خلفها سعى موكب عظيم – وازت مسجد الكوثر، فظنّ إمام المسجد أنّ الله مَنّ على هذه الجموع بالهداية، فخرجوا زرافات لأداء صلاة المغرب. تراجع عن تفاؤله عندما رأى حورية عارية تجسّ نبض الأرض، فصاح بمن يستطيع سماعه: "استروها ربنا يستركم في الدنيا والآخرة".

فأجابه صوت تكسّر بين حمحمة السائرين: "ترفض التستر يا شيخنا".

كان الموكب قد عبر وقفة الإمام، فلم يجد أحدًا يُجيبه عن سؤاله: "أمجنونة هي؟".

لغط عنيف يكتسب وعورته مع ازدياد المنظمين للوفد، وفي كلّ نقط من ذلك التجمع ثمّة حكايات وأصوات تذرف الاحتمالات، وصرخات تعرج لمقولات باغية لم تكن أكثر سترًا من ذلك الجسد الممشوق المتابع بقلوب خافقة بالرغبة.

غاب الحكماء عن ذلك المشهد وتنادى السفهاء من كلّ صوب: أيّهم يبدأ بهزر شيء من فتنة الفتاة العارية؟

تهادت سيارة الشرطة محاولة اختراق تكتل الناس ولم تستطع ثقب تزاحمهم على اتساع الشارع الكبير، وعجز السائق – الجندي – عن إطلاق التحذيرات بصوت سيارته المزعج المتقطع والمتقاطع مع صوته القادم من مكبر تهاوت نبراته أمام هياج وصيحات المتجمهرين خلف ممشى تلك المرأة المتجاسرة.

بعد جهد جهيد غدت سيارة الشرطة في المقدمة وكانت المعضلة كيف يُمكن اقتياد تلك الفتاة وإركابها داخل السيارة رضاء أو عنوة، ولم يستطع رجال الشرطة تنفيذ أيّ خيار مما عزموا على فعله، فقد نهضت حمية المجتمعين داخل المشهد، فاستداروا حول الفتاة للحيلولة بينها وبين من أراد مسها، وكان تعنت بعضهم واضحًا، وتبرأ اثنان من المتجمهرين إطلاق القسم أن حياتهما مرهونة ببقاء الفتاة في مكانها من غير أن تُمسّ، مطالبين رجال الشرطة إحضار جنديات للتعامل مع الموقف: "هي عورة ولا تلمسها إلّا امرأة".

كانت الفتاة متصلبة في مكانها تجول بعينيها بين المتجمهرين فزعة وكلّ منهم يتمنّى لو أنّ بصرها يستقر على وجهه. ولو حدث ذلك، لربما وصلت به الحمية أن يموت مقابل أن تحضنه برمش أجفانها.

تتابعت ثلاث سيارات شرطة استجابة لتفريق الحشود المتزايدة، ومن السيارة الثانية، ترجلت جنديتان تحملان من التجهم ما يفيض عن حاجتيهما، كانت إحداهما أكثر فضاضة من زميلتها عندما لطمت وجه الفتاة العارية وهي تلقي عليها شرشفًا داكن اللون من غير مراعاة سلامة

المولود المحضون الذي أوشك على الوقوع لولا أن تجرأ أحد المتجمهرين وساند وقفة الفتاة بتثبيت استقامة جذعها. ومع انطلاق سيارات الشرطة، أقسم الرجل الذي أسندها أنّ لها جسدًا رطيبًا كثبج البحر في تجمعه وبروزه.

***

كنتُ غائبًا عن هذا الحدث لكنّ ما تلاه استأسرني تمامًا.

كدماء القلب، ملكت كلّ كياني واختفت لأغدو ضامرًا وأسير ميتًا.

تحوّل الاختفاء والظهور معضلة أعاني منها كلّ حين، فالمرافق قدّار كتب قدرنا على هذين النقيضين حضورًا وغيابًا أثناء تجوالنا أو مكوثنا. لم يستطع إقناعي بأساطيره الموغلة في الزمن، وفي جملة مائعة جمعت المسكنة والتودد: "أنت نتفة من أسطورة ضخمة وعليك استكمال قدرك".

كمفتاح ضليع الاختصاص، جربني في فتح الأبواب الخشبية والحديدة، الغليظة والرقيقة، الصلبة والهشة، ولم ييأس من انتفاء صلاحية منفعتي، فاستخدمني كبطل ملحمي حتمي الظهور.

في غالبية الأحيان، نكون مسافرين، وكلّما هبطنا إلى بقعة من هذه الأرض، شدّ الرحال إلى منزلة عالية أو منخفضة. استشعرت أنني بذرة لم تُبذر بعد، بذرة ظلت بين أنامل المرافق قدّار حتى أوشكت على العطن، وما زال يتخيّر أيّ الأماكن يبذرني فيها.

شاغلتني نفسي متحججة: "حتى لو بُذرت، فالبذر اختفاء".

عشنا في القرى وتحت أعشاش الفلاحين وبين خيام البادية وتحت أسقف الصيادين وعلى أبواب الكهوف. وفي البيوت المرفهة، كان يخشى عيون الناس. إذا دخلنا المدن الكبيرة، يُلبسني عباءة وخُفّيْن وقفازين عند مرورنا بنقاط التفتيش. ويظل يتنحنح كديك محلي مدعيًا أنني زوجته! كم أستحقره كونه زرع في داخلي هذه الصورة الشاذة. وعندما أنفرد به وألقي على مسامعه كلّ أنواع الذم مصحوبًا بسخط فادح يستحيل إلى حمل وديع، ويقترب ملاطفا ومعتذرًا ومقبلًا رأسي:

"قدرك الاختفاء يا سيدي".

صك حكم الاختفاء كعملة ذهبية عليّ التزود والتعامل بها. حدث ذلك أثناء غياب مداركي، وكنتُ قادرًا على التعامل بعملة الاختفاء لأزمان، وبعد تغييب ثَنْوَى لم أعد أقوى على سماع أيّ كلمة من كلماته المتزاحمة المبثوثة عن عقل خاوٍ، فكلّما سمعته يتحدث عن الحتمية، تغلي نفسي ويضطرب وجداني حتى لا يعود في صدري متسعٌ لمنحه الرضا.

في القرى غياب، وفي الشواطئ غياب، وبين الجبال غياب، وفي الصحاري غياب، وفي المدن غياب، وقد عجزت عن الإمساك بشظايا غضبي، فاشتاط منه غاضبًا:

"وماذا عن ثَنْوَى، أكتبت عليها الغياب؟".

بنفس البرود والتبلد يُردد: "قدرها الاختفاء أيضًا؟".

أوصلني إلى يقين أنّ الاختفاء هو الأصل السائد، وأنّ الظهور حالة متنحية إذا قيست بامتداد الخط الزمني للحياة، فالاختفاء سمة فيزيائية تلجأ إليها الحياة في دورتها، فتلتهم ما هو رخو وتُقلم ما هو قاسٍ ومستعصٍ كتعرية الجبال، فالتقويض تقوم عليه الرياح متخفية كأنّها معول مسنن، حتى إذ ظهرت أدت عملها على أحسن ما يكون. ما يُميز حديثه الإمساك والتعتعة قليلًا ليصل إلى ترابط فكرته: إنّ معادلة الفناء وُجدت من أجل تسبيح الله، فهو حي لا يفنى ولا يستحدث. وكلّ زائل لا يُعتدّ به، فالأصل لله الظهور واختفاء كلّ مخلوقاته.

– هل ترى من باقٍ إلّا الله... هو الحضور وما عداه مختفٍ وزائل!

هكذا نتبادل تضفير الجدل، حينًا لي وأحيانًا عليّ، وإن استقامت حجّتي، هرب إلى مخازن التورية والتشبيهات النائمة في كتب البلاغة. يبدو أنّه حفظ قواعدها وأُغرم بها، ففي كلّ لحظة لديه تشبيه ملائم ليُؤكد أنّ الأصل في الكون هو الاختفاء، حتى إذا ظهر ما يسقط نظرته، وُلد لديه اختفاء جديد، مؤكدًا أنّ كلّ شيء هالك، ساعتئذ نقول بحق: سبحان الله الذي لا يغيب ولا يتغير ثابتًا حاضرًا.

– لو لم نفنَ ونختفِ، لكنا آلهة.

وكلّما أراد تقريب فكرته، كان يُمسك بشعر رأسي: "الخلايا البشرية تفرز وتتآكل وتقبر في الطاحونة العظيمة للكبد وما هذا إلّا لعبة لكي تخفي وتواري جسدًا جليلًا تحت الثرى، وبعد زمن يتم تخميره ليعود الثرى خلقًا جديدًا".

في محاجّاتي، بدأت بخدعة طفيفة بين الآكل والمأكول، وأيّهما الفاني قبلًا؟ وكهيئة المعممين المولعين بالتورية، قفز بين يدي كقرد مدرب: "المأكول قضاء والآكل قدر".

أزعجني بما هو كافٍ، ففي كلّ حين له رأي وله هيئة يتوارى خلفها، خمش بيديه ترابًا وذراه فوق هامتي.

– الثرى مادة منوية قابلة للتدوير، فكلّ تراب يحمل خصوبة الإنجاب.

استرخى على ركبتيه وسفى ما تبقى في يديه من تراب.

– هكذا يُمكن إعادة الخلق، فالذي يتوالد يكوّن اختفاءه، وفناؤه قائم على تدوير خلقه. أمّا الله عزّ وجل، فليس قابلًا إلّا على الظهور دائمًا.

تحوّلتُ إلى حوض يستقبل انصباب ضخه المستمر. أظنّ أنني آمنتُ ليس قناعة وإنّما إيمان المغمور تحت مياهه المصبوبة.

وقد وجدتُ هذا الإيمان يترسخ في وجداني عبر الأيام، وساعدتني مهنة صناعة الفخار التي يتقنها أبي لتأسيس تلك الفكرة وهضمها.

– التشكل أحد أسس الحياة كي لا تغيب مؤقتًا ونهايتك الغياب.

J = 6

من الصباح الباكر، يقف أبي في "المطينة" محرضًا إياي على مساعدته في ملء القفة الخزفية بالطين.

وبسبب كثافة الطين اللازب، نعجز عن حمله قبل أن ينهض الحمار بالمهمّة بدلًا عنّا. شيّد أبي معمله في الفناء الخلفي لبيتنا داخل عريش متهاوٍ شق خندقًا ضيقًا بفأس ذي سن عريضة، واستطال امتداده وعرضه بقياس متماثل، وعزق الجهة الجنوبية لتكون الأعمق.

داخل تلك العزقة ثبت في قرارها عجلة بدائية ترابطت أجزاؤها بسيور جلدية من أسفلها إلى أعلاها، ونبسط لوحًا خشبيًا مستطيلًا تتوسطه قاعدة دائرية يثقبها عمود حديدي يتصاغر طوله أمام كتلة الطين الموضوعة عليه، وفي الأعمق، استقرت دعاسة خشبية تدور بثقل ضغط القدم عليها، فتتوصل حركة العجلة عبر السيور الجلدية، مانحة القاعدة العليا حركة الدوران بالطين المثبت، لتقوم يدا أبي الماهرتين على زمّ وفتح كتلة الطين محدثة الانحناءات التي تتناسب مع الشكل المرسوم في ذهنه.

وفي الجهة المقابلة للخندق، كان فحيح نار الفرن قد تصاعدت درجة حرارته حتى أنّ ألسنة اللهب بمقدورها تحويل ذرات الهواء العابرة لفوهته إلى حالة غازية.

أحيانًا يتظاهر أبي بالإرهاق، لاعنًا صناعة الفخار وكلّ من يمتهنها، متخلصًا من بقايا الطين المتراكمة على أطرافه، ومفسحًا الطريق أن أكون مكانه.

تعيد ذاكرتي تلك اللحظات مشعة كوهج الصباح، فما إن أقتعد مقعده، حتى أنمو كغيمة وأنتشر في ملكوت الله أجني من خيالات مخيلتي أشكالًا أجسّدها بإتقان حتى تجاسرت مشكلًا من الطين خلقًا على هيئة بشر.

ولم يكفّ أبي عن تعنيفي يوميًا: "أضعت الطين من غير أن تُفلح في تشكيل جرة واحدة".

وعندما يبرد الفرن تمامًا يعقد معي مراهنة على الجودة والرداءة. في البدء، كانت جراره تخرج بتشكل انحناءات منمنمة وتعرجات في غاية الروعة ضاحكًا من مخلوقاتي المشوهة الرديئة. ومع كثرة المراهنات أمضيتُ عمرًا كاملًا لكي أجود في خلق مخلوقاتي.

30 = هـ

ما أعيشه من حياة تُعد فجيعة لذاتي ولكلّ من يتماس معي. لا أعرف كيف يُمكن تبسيط الغرائبية التي أحياها. مدلوق كفنجان قهوة حَلِمَ صاحبها الاستمتاع بتذوقها لكنها أُريقت على سطح محدب فترقرقت، وبقيت تتقطر بين حُلمٍ وهَباء.

– هل ما نحياه لعبة سراب؟

لم أشاهد ملامح وجهي بتاتًا.

رغبتُ التوثق من نفسي، فإذا بي أزداد شكًا في ما أنا عليه. أقفُ مشطورًا بين جزئيات الزمن، وفي كلّ جزئية أكون في شأن. ليس هذا فحسب، فحاضري يتفتت بين الشك واليقين.

كلّ لحظة يتمزع كياني باحثًا عن وجود ركز في أذان الناس واتفقوا عليه. ولكي أكون صادقًا، لم يعنيني أحدٌ قط، أردت الإمساك بنفسي فقط، تعمل حواسي مجتمعة باختلال وارتباك سوى أذنيّ ظلتا نشطتين تحملان الفضاء الخارجي وتوسعان به أعماقي فيزداد تيهي.

– هل أنا موجود أم مجرد أفكار سابحة في الهواء تسوطها الريح أينما اتجهت؟

كلّما جرفتني حياة، دفعتني إلى حياة أُخرى، عشرات الأحداث لا أنتمي إليها لكنها تنتمي إليّ، كيف هذا؟ هو السؤال الذي أجول داخله كحلقة مفرغة لم أستبن كنهه. أُمسك بنفسي حينًا، وحينًا يتقاسمني الخلق للسلوى والتندر.

كنتُ ضائعًا في نفسي فوجدت فرصة أن أضيع بحثًا عن ثَنْوَى لعلّها تعيد النفس إلى استوائها.

أجري في دمي باحثًا عنها وهي كجمرة حارقة تنهب أعصابي ولا أجد من يطفئها، كوت الأضلاع وجاءت إلى العصب فلم أعد أذوق طعمًا لراحة سوى تعميق الألم لعلني أنجو منه.

– حين تفقد الراحة من شيء ما اقتله بالغرق فيه!

أوه! ذكرني الجريان في الأوردة بقضية الضلال، فهل أنا إبليس ضال مضل؟ تسارعت أنفاسي عند هذا التصور، فإيماني بهذا المخلوق أنّه لفظة مجازية تعني الهوى، وليس كائنًا مجسدًا، هو يتجسد في الرغبات المحرمة، فالهوى شيء ينازع النفس ويرديها، فهل أنا هوى أجري في نفسي؟

في جزئية زمنية، لم أشأ شيئًا سوى الالتصاق بالنور، أتفتت مع أيّ كلمة تتصاعد حتى غدوت بذرة تنتظر ريحًا تحملها من أجل إتمام التلقيح النوراني، أمعنت في هذه السباحة لكن غواية الشيطان تكمن في سرقة المتجهين إلى الله، وتمت السرقة حتى أنّه يوسوس لي أنني ذاته أجرى مجرى الدم في العروق!

لست واثقا من ذلك الاختطاف، وإنّما أراوح بين الضلال والهداية، وكل وجه منهما يمنحني سراطه المستقيم، فأيّ صاعقة تنسف هذه الأفكار وتعيدني إلى الصواب، أعلم أنّه ليس هناك صواب مطلق أو خطأ مطلق؛ معضلة الحياة أنّها تجمعنا بين طرفي الصواب والخطأ، لذلك نتزاحم في المنطقة الوسطى ولا يصل أيّ منا إلى حقيقة مطلقة.

لا لا لا لا... عند هذا المستوى من التفكير عليّ أن أتريث قليلًا. لنعد إلى المجادلة مع تثبيت أنّ هناك حقيقة مطلقة خارج ألاعيبنا وحيلنا اليومية. بهذا الاتفاق، أؤمن أنّ هناك حقيقة مطلقة هي الله واليوم الآخر. فما هو خارج وجودنا له وجوده الزمني والمكاني الخاص به.

كدت أفقد رشدي، فتريثت وأخذت أنظم أفكاري على اليقين الثابت، ومع أن الكون بفضائه وكواكبه ومجراته وسحبه لا يمثل حقيقة لمن هو خارج عن زمنيتها، بينما الخالق محيط بكلّ شيء، فكيف لمخلوق الإحاطة بالخالق؟

إذن، ماذا أكون؟

الرعب الذي يعتريني أنني لا أعرف ملامح وجهي. أُحملقُ في صفحة المرآة فلا أجد نفسي. كان غياب ملامحي من العلامات الكبرى التي حملتْ الشك إلى جوفي وتسوقني إلى احتمالية أنني أجول في مدار آخر. وقفتُ أمام مئات المرايا، وفي كلّ وقفة أستشعرُ أنني تسبيحة خافتة خافية. أحسُّ بوجودي ككلمة، أمّا الملامح، فإنّ المرآة تصفو حتى تشفّ من غير أن تُبين منّي شيئًا.

– هل وجهي نوراني يتشظّى على أسطح المرآة، فلا أُمسك بملامحي بينما أتجمعُ في أعين الناس كمحصلة لمروري بمنشور زجاجي فأظهر لهم؟ كيف هي ملامحي؟

كم أتوق إلى معرفة ذلك!

***

أنا عاجز عن تعرفيكم بنفسي.

ولو عدت بكم إلى الماضي، فسوف أجد عشرات الحكايات أو أكثر من ذلك، تمثل كلّ حكاية حياة عشتها، هذا إذا كان لي ماضٍ حقًا، عشت حيوات عدة وكل منها أؤمن بها، بل أكاد أقسم أنني عشت كلّ تلك الحيوات.

سأبدأ بأحد أوجه الماضي الذي سوف أثبته هنا كحقيقة عشتها على الأقل ويُمكن لي أن أصل إلى حالة تواشج أُقيم بها صلب حكايتي بغض النظر عن ماهية تلك الحياة.

1

يسيل الليل من جبال شاهقة يتخلل الأماكن الغارقة بين سهوب جبال السراة، حتى إذا استوى في قرى تهامة، غدا جوادًا مسبلًا الغطرسة يخب كطوفان ظلمة يغزو المنحدرات ويتنقل بألوانه وأرديته حتى نزل ضيفًا ثقيلًا على بيت ظاهر التعمي المنشغل متعة بدلال زوجته سلمى.

وعلى مساحة القرية، تزعزع مساء دامس منذرًا بكأبة محتملة، ومن ثقب ضيّق، انفجر ظلام حالك ليهدم جدر الطمأنينة في قلب صفية، إذ وجدت نفسها تهتز لصوت جمع بين النشاز والجهر الرصين.

– يا صفية...

شدت صلبها لسماع اسمها يتردد في ظلمة لا تعرف لها حدودًا، وتموج في مسامعها صوت عذب متراخي النبرة.

– سيكون حفيدك آخر ملوك الأرض ويُسخر له كلّ شيء من جنّ وإنس.

تلعثم لسانها واصطكت قدماها تاركة للتجمد حرية استيطان أطرافها، وثبتت في مكانها بانتفاضة اقشعر لها بدنها بينما سرى الصوت يخب في أذنيها.

– فلا تُفرطي في المهمّة الملقاة على عاتقك.

...–

قدامان توغلان في فناء البيت يخيل لسامعها أنّها خطوات قيد أو تعجل المشي في ثوب ضيق الاتساع من الأسفل.

احتاجت صفية إلى وقت أطول للتماسك مصغية إلى مصدر الصوت لتحدد موقع المتكلم، ومع عجزها دفعت جملتها الواهنة الكسيحة برعب: "أيّ مهمّة؟".

– العناية بحفيدك؟

ارتبك بالها بين واقعها وتلقى نبوءة لا يُمكن التثبت منها.

– ليس لي حفيد...

– سيكون لك حفيد هو آخر من تُسخر له الجن!

أغطش الليل الأبصار بظلمته الغامقة، وجاس في المكان متريثًا باسطًا وحشة تمددت بريح عاوٍ ينهش وداعة القرية بأزيز حاد، تقرقع له مفاصل المنحنيات والأزقة بصفير قادر على ثقب سكون الأشياء بنية تفجيرها.

ظنّت صفية أنّها جُذبت إلى العالم السفلي، فرسخت قدماها كأنّهما تغوصان في رمال لم يطأ كثبانها مسافر منذ زمن قديم.

ولبثت منتظرة مرور نجمة متوهجة أو خابية لعلها تكتشف من يقف داخل الظلمة. كان القلق محركًا خطواتها، ومع كلّ همهمة قريبة يستفحل مجونه لينبت الخوف في صدرها أشواكًا، وهي ما زالت تبحث عن قنديل تجابه به ليلًا ماحقًا ارتوت أطرافه بظلمة عمياء. حينًا يكون الخوف أقوى من الاحتمال وحينًا تكون عازمًا على الخروج من بين براثنه.

شعّ في بال صفية أنّ هناك ركنًا منزويًا في الجهة الجنوبية من دارها، وأنّ ثمّة مخزنًا للأدوات الضرورية قصدته بتلمس الأشياء بيديها دافعة بابًا له صرير كأصوات العجائز الباكيات، ومع انفراج درفتيه انثالت على بصرها ظلمة إضافية فعجت من داخل المخزن أخيلة وأشباح، ارتاع فؤادها وانكمشت عظامها، وندهت بتلعثم مفزوع: "من الهاتف؟".

اقشعر جلدها حين أحست بدبيب يجري في عروقها ولم تعد قادرة على إعادة سؤالها.

– من الهاتف؟

فتلفعت ثيابها مذعورة ومنحها خوفها خاصية مسابقة الريح.

***

تناهى إلى مسامعها ضجيج يعترك في المدى، ويهمهم بجملة لم تستوضحها، وكلما حاولت الإصغاء، ترسب الخوف في صدرها وحشًا كاسرًا، وأحست أن سوطًا يلهب ظهرها، فعدت لا تلوي على شيء، وثمّة خيال يشاطرها العدو (كانت تلمحه شبيهًا بقدّار ويتطابق معه حتى في جديته). وكلما أبطأت، حثها الشبيه على مواصلة الركض شارحًا لها ما تجد من خيالات: "ها هي قبائل الجن تتجمع لكي تكتم أنفاس المولود الموعود".

وقبل أن تستبين صفية من أيّ وجه يأتيها الهاتف ليُملي عليها خبر الجنّ، حفّزها بوصيته: "حافظي على حفيدك".

هبطت كسفًا من ليل أغطى على بصرها فلم تعد ترى راحة كفيها، فأطلقت قدميها للريح غير مصدقة أنّها تعدو ذلك العدو، ولم تثبطها السنون التي تحملها من مواصلة الركض المحموم...

تلهث

لهاث

لهاث

قدّار الجبلي.

استقر قدّار في جوف القرية عالمًا بما لا يعلم به أحد من الناس. يُمسك دائمًا بجذع أخضر يتوكأ عليه من غير سقم ويستفتح ممشاه.

– مَنْ رأى رأى...

نزعة اختصار الجمل أوصدت الفهم بينه وبين أهالي القرية، ولم يشاؤوا اتهامه بالجنون أو الدروشة، يهذي بينهم، وفي كلّ مرة يكون صائبًا في هذيانه.

أحيانًا يتوقف في الطرقات ويخط بجذع عصاه خطوطًا متشعبة ويركز قامته هنيهة راسلًا بصره مرارًا بين الوجوه المحدقة به ويسترجع بصره كسيفًا من تلك الوجوه الكالحة.

– مَنْ رأى رأى...

في كلّ انتصاب، يغرس قامته بين خطوطه المتعرجة على الأرض فتذهب مخيلته إلى أنّ الكون لوحة إرشادية كتب فيها ملايين الأسرار، والمحظوظ من يمسك بشِفرة قراءة صفحات الكون. ولأنّه القارئ الوحيد في القرية، لا يميط اللثام عمّا قرأ.

حينما خطتْ صفية عتبات الليل مرتبكة متعثرة في ظلمة دامسة، كانت كثافة الظلمة تُخرج مردة الخيال. وفي كلّ زاوية معتمة من زوايا بيت صفية، ينبعث خيال مجنح. كان ثمّة مخزن منزوٍ اعتقل مردة الليل الحالك، وحين صر الباب، فر كلّ مارد – كان هناك – ممسكًا بسر من أسرار الكون ليُذيعه في بقعة من المعمورة.

تبقى مارد واحد وقف ثابتًا أمام غشاوة بصر صفية ملقيًا في روعها البشارة: "سوف يكون حفيدك ملك ملوك الأرض وآخر من تُسخر له الجنّ!".

ها هو قدّار يأتي في مخيلتها ضاحكًا فتراه يعبث بين سكان القرية برؤاه وأحاجيه موغلة في الغموض، كلّما أراد أحد الأهالي إسقاط كهانته، انسل من أمامه مرددًا بصوت لطيف النغمة ساري التمدد: "مَنْ رأى رأى".

من شقوق نافذة المخزن المطلة على الشارع، شعّ ضوء خافت، فتسمرت صفية حيال ثبات خيال لم يتلاشَ ولم يجفل من نظرتها المركزة صوبه، فارتعدت.

– كفاك لعبًا يا قدّار.

ظلّت قدماها معلّقتين بين الإقدام أو التراجع. ومن آخر حدود شجاعتها، ندهت بصوت واثق: "اترك ألاعيبك يا قدّار".

اصطكاك مفاصلها وثبات ذلك الخيال في أهدابها مكّناها من سرعة الإمساك بكشاف صغير – تعلم أين تضعه من المخزن –، وبعجلة، سلطت الضوء في عمق الظلمة، فتبخرت العتمة على أجنحة أشعة جاست المكان.

جف الفزع من مفاصلها، فحملت فانوسًا وكازًا وكبريتًا، وانعطفت داخل المنزل تُهدئ انزعاج سلمى زوجة ابنها.

– لم يبقِ لي زوجك إلّا تَبَغْنُجُك!

أرادت من جملتها إيقاف دلال وتغنج سلمى، وإن كانت تراعي صعوبة إنهاك حملها الدائم، فتتلطف بها كلّما طرأ ببالها مقدم حفيدها الذي انتظرته طويلًا.

سرجت الفانوس وهي تحث سلمى على الإتيان بقربة ماء دافئة لتضعها أسفل ظهرها تخفيفًا لآلام تعاودها كلّما خذلتها مفاصلها في تحمل حالات الخوف.

تمددت على أريكة فُرشت بفراش قطني وغُطيت بشرشف زهري منتظرة قدوم سلمى بقربة الماء، سبحت في خيالها مستجلبة اللحظات الفائتة دهشة متسائلة:

"أكان ذلك المارد قدّار؟".

صفية تجزم أنّ قدّارًا يحمل سرًّا سيُغير حياتها، ومع ذلك تُهمل هذا الخاطر وتصفح عن تدخله في حياة ابنها، بل في كلّ شؤون القرية. وما زالت تذكر تلك الليلة التي مكنت خطاها الناهبة للأرض أن تقطع غمائم الظلام، بينما كانت أذناها تسترجع ذلك النداء بترانيم قدسية: "حفيدك سيملك الأرض فأحسني وفادته".

قطعت سلمى انثيال خواطرها، وقبل أن تدس قربة الماء الساخن أسفل ظهرها، أشاحت صفية عن مخيلتها خيالًا علق في ذاكرتها متوعدة قدّار بعقاب لا يخطر له على بال.

تأوّهت مع تجدد نواغز كشحيها، فدهمها وجه قدّار عنوة.

– أتعاقبيني وأنا أطلب منك البشارة!

فتتراجع عما نوت متحسسة صدرها برضا كامل.

– أكنت هناك يا قدّار؟ لا تغضب؛ كنت أمازحك!

مضت ليلة غارقة في الوحشة ذادت عن نفسها جبروت ريح بسط جناحيه على القرية، وواصل عبوره الأزقة والشوارع بصفير أقرب إلى عواء ذئب انفكّ من مصيدة ضاق فضاؤها، فنفر يلملم أطرافه مودعًا تلك القرية النائمة على عروشها على وعد بزيارة مقبلة.

أقسمتْ صفية أن قدّار كان يسوط الهواء حتى أخرجه من جنبات القرية، وهو يتلو عليه طلاسم من عهد الأولين. واختتمت شهادتها بقولها: "قدّار سر الأرض الكامن فيها".

لم يعرف أحد لماذا خرجت صفية على النساء تروي عظمة قدّار الذي كان خارج المدينة ليلة أمس، لكنها ادعت وجوده، وأنّه من أخرج العاصفة ليرميها إلى عرض الخبوت القريبة من القرية!

3

مضغة دم انسلتْ من رحم ضاق بحياة لم تكتمل. مضغة سميكة لها زلال دبق انسلت كمحّ بيضة وتلبدت على عرصة الغرفة محدثة ارتطامًا خفيضًا صاحبته آهة عميقة أخرجت سلمى من تقلصات مضنية بدأتها من ليلة البارحة. تصايح النسوة الملتفات حولها حينما تهاوى جسدها وسارعت إحدى الزائرات إلى احتضانها.

– لقد أَسقَطَت.

احتل هذا الخبر موقع تجمع النحس في ذاكرة صفية، زمت حاجبيها، متمتمة: "سوء الطالع تجذبه الفخاخ المحكمة".

دافعة هواجسها إلى جوفها قبل أن يستوقفها تاريخ أمراض كنتها التي لم يكن رحمها أمينًا على أيّ ماء يسكبه ابنها في بطن سلمى، وها هي تسلب بعد أربعة أشهر من حملها.

– بطن سلمى مخبأ للنحس، يسفح أحلامي دائمًا ويشي ألّا يكون لي حفيد منها.

قبل هذا حضر خمس من الجارات لعيادة سلمى بعد أن تناقلن قسوة مرضها الأخير، مشفقات على جسدها الناحل الهزيل من حمل ثقل يفوق مقدرتها. ولدقة حوضها ورهافته لم تكن قادرة على حمل مولود لتسعة أشهر وقد أظهرن لومًا مبطنًا من الكيفية التي دفعت سلمى – المجهدة – على نقل وعاء الطين من مكان إلى آخر.

كن قد قدمن لعيادتها من الأصيل، وصدق حدسهنّ فبعد أن تناثرن على أرائك منخفضة الاستواء شعت منها روائح القطران، كنّ يرتشفن قهوة محلاة لم يستمتعن بمذاق تحويقتها حين أسرعن بالنهوض تلبية لاستغاثة صفية، فألقين فناجينهن على طاولة عتيقة وانكببن على بدن لم يبقيه على قيد الحياة سوى أنفاس عجلى ونزيف رحم تخلص من مضغة كانت هي حلم صفية برؤية أول حفيد تنتظره.

4

قبل امتزاج رائحة الدم والطين التفت صفية صوب كنتها: "أنت تعبة، ابقي مع الجارات ريثما أنتهي من عملي".

مضغة تشبثت في لزب من طين أعدّته صفية لإصلاح ركن انقشعت لبنته في غرفة الاستقبال. وفي غفلة منها، رغبت سلمى في مدّ يد العون لخالتها، وقبل أن تنهض بالوعاء المملوء انثنت قليلًا وانسلت من بين فخذيها قطعة لحم غليظة وجرى الدم. تهاوت بسرعة قصوى لتنهض الجارات بحملها إلى داخل الدار، وتكوم النساء داخل غرفة ضيقة لم تتسع رئتها لحمل أنفاسهنّ مجتمعات، فتنادين بالتخفيف من جمعتهن، ليمنحن فضاء الغرفة متسعًا من هواء رعاية بامرأة سكبت دموعها ونشيجها خلف سقوط مضغة كانت من الممكن أن تكون ولدها.

لم يكن معها في تناجشها سوى أختها ضامية.

***

مضغة نبّهت محاجر أهالي القرية فزعًا فلم يأووا إلى مراقدهم.

في البدء، كانت المشورة دفن المضغة في مقبرة البلد لكن التبدّلات منعت المجتمعين من الإتيان بأيّ فعل، وظلّوا في شغل فكهين مما يحدث، حتى إذا جفت سخريتهم، استبان لهم أنّهم في أمر جلل.

تنبهوا ألّا أحد منهم قادرٌ على الاقتراب من تلك المضغة لاجتثاثها من أرضية استجابت لتمدد دماءها المترسبة بين مساماتها المفلطحة وكانت تنزّ فقاعات دموية تطبطب في مكانها من غير انفجار، وتغوص في لبد كأنّها دودة تدب معاودة الفعل نفسه مرارًا.

أول من حاول قشع المضغة من تلبدها سليمان المركباني فتصلبت يده وعندما كف عن محاولته الأولى عادت يده إلى سيرتها الأولى، فتراجع مدةً وأصر على تكرار فعلته فسقط كالمغشي عليه ولم ينهض إلّا بتقليبه وسط التراب ورشه بالماء بعيدًا عن المضغة.

ومع محاولة الحاضرين حمل المغضة يحدث الحدث نفسه، وقد كان سالم البريكي أكثر المتضررين، فقد أصيب بأذى فادح إذ فقد سمعه وبصره معًا عندما فحات عداوته.

– هي مضغة حرام!

وقبل أن تجف مقولته عصفت بالمجتمعين ريح ثقيلة كأن السماء استدعت عواصفها، فتعكر المكان بدومة من ريح لم تعصف إلّا المكان نفسه، ومع انقشاعها وجدوا سالم البريكي مقذوفًا في آخر صفوف المجتمعين لا يسمع أحدًا ولا يرى أحدًا.

وربما كان ذلك العصف الليلي الوحيد الذي مر بالقرية فترك المتجمهرون في حيرة وتخبط صاخبين، وقد فكر بعضهم في مغادرة فناء بيت صفية لكنّهم أحسوا أنّ أقدامهم راسخة في الأرض، بقيت محاجرهم معلّقة في تلك المضغة العجيبة، وثب فايز العجمي صائحًا: "انظروا إلى المضغة ها هي تتحرك باتجاهنا".

ركزوا أبصارهم لرؤية حركة تمايل تلك المضغة التي تشكلت في عيون الحضور كدابة تنهض من الأرض، وتراجع من مسه الرعب عن التقدم، وخلال دقائق شاع الخبر، فتقولت النساء إن جنيًا وطأ سلمى وفجر مهبلها فحملت منه. وما إن انتهين من نميمتهنّ، حتى أصابتهنّ الغمّة!

***

آمن كثيرون من أهالي القرية بمعجزات وكرامات قدّار وما تخبره – به – طوالع ودوران الكواكب عن أمر خُبئ عنهم، وكُشف لقدّار ستره، فكانوا يسيرون على مقولاته من غير تفكير أو تدبير.

ليليا تسرح عيون قدّار بين النجوم والكواكب، فقد كان على دراية كاملة بعلم الأنواع، ذلك العلم أبقاه متنبهًا إلى كل واقعة يُمكن لها أن تحيط بالقرية وما جاورها من قرى الوادي، ولو لم يكن الأمر جلَلًا، ما أوصى بالابتعاد عن تلك الدابة – المضغة – التي تنتج بعضها بعضًا.

ما إن ارتفعت الجباه من سجدة الشكر، حتى لاذ كلّ منهم بالصمت والخشوع لما يتفوّه به قدّار، فتسمرت العيون على حركاته وسكناته كتقليد حتمي يُمارسونه لمعرفه ما سوف يقوله من أيضاح يوصله إليهم تلميحا. يقفون مصغين تمامًا – بعد تصفية آذانهم من أيّ صوت – حتى إذا تمتم، أمسكوا بكلّ رقم يتفوّه به وعوضوا بدلًا عنه الحرف الذي يُقابل قيمته، ولكلّ منهم حرية صياغة الجملة بالحروف التي جمعها من متابعة جريان الأرقام. بعضهم تعلموا منه القيمة الرقمية لكلّ حرف يُنهي به الكلمة الواحدة. هؤلاء هم وحدهم من يصلون إلى فحوى ما يكشفه من أسرار تخرجها تمتماته، ووحدهم يتبعونه سيرًا إلى أيّ مكان يذهب إليه.

اعتلا كرسيًا متخذًا منه منبرًا وبقي ثابتًا عليه، وهدر فمه بأرقام متلاحقة:

90 + 30 + 4 + 30 + 6 + 90 + 60

90 + 30 + 5 + 40 + 80 + 60 +

40 +

90 + 30 + 90 + 40 + 50 + 13

&&&&&

(8-) + (3-) + (6-) + (7-) + 90-

كانت الأرقام تنهمر من فمه كجريان السيل حتى أنّ أولئك النفر ممن تعلموا منه سر القيمة السحرية للرقم والحرف لم يلحقوا به فضاع منهم المعنى، لولا أنّهم تداركوا عجزهم برجاء إعادة ذكر الأرقام مرة أُخرى:

90 + 30 + 4 + 30 + 6 + 90 + 60

90 + 30 + 5 + 40 + 80 + 60 +

13 40 +

90 + 30 + 90 + 40 + 50 +

&&&&&

(8-) + (3-) + (6-) + (7-) + 90-

فتقوّل كلّ واحد منهم بقول متفرد، وأصبح روايًا عمّا سوف يحدث للمضغة.

***

ما زال المجتمعون في حيرة من أمرهم وغدا فناء بيت ظاهر التعمي متلألئًا بالأضواء المسكبة من أيدي المتجمهرين الذين حملوا مصابيحهم لإحاطة المكان ومتابعة تلبد عروق الدم المتجمدة على

حافات المضغة، كأنّها في حالة رقص أبدي، كلّ جزء منها نفر وتشكل وفق نية الناظر إلى تلك المضغة.

غريب أبو فاطمة خُيّل إليه أنها حية تسعى، فقز من مكانه.

– هي الدابة والله!

***

كانت ليلة طويلة المدى، تجمهر فيها الرجال والنساء لمشاهدة أغرب حدث مر ببلدتهم الصغيرة.

وقال القادمون من خارج القرية إن ذئابًا توافدت من كلّ صوب وأخذت في العواء حتى أغلقت المنفذين الوحيدين المؤديين إلى المقبرة تاركة اتساع الفضاء المجلل بآبار القرية وحقولها وأشجارها فارغًا، واستوطنت المقبرة الوحيدة لكي تمارس العواء بشراسة متقدة.

غدا فناء بيت ظاهر التعمي حجرًا مغناطيسًا جاذبًا لكلّ شاردة وواردة، فتجمهر الأهالي لرؤية المضغة، ومع مضي الوقت انصب طوفان الناس عندما قيل أن دابة يوم القيامة خرجت من بيت ظاهر التعمي!

فتخشبت مفاصل الرجال وذوت صرخات النساء وطافت توقعات العقول عمّا يُمكن حدوثه لأهالي القرية، ومنهم من قفز لإعلان أشأم خبر بزوال الأرض.

سارع صديق المجالي بالسجود فتبعته كلّ القامات المنتصبة في سجدة واحدة، ولم تعد هناك من قامة منتصبة إلّا قامة قدّار. ارتقى كرسيًا – كان ملقيًا بجوار بيت ظاهر التعمي – متنحنحًا وصائحًا بالسجد: "مَنْ رأى رأى".

وكأنّه بوق النفير، نهض الجميع من غير نفض جباههم من التراب العالق بها، ليسمعوا مقولة قدّار: "هذه اللحمة النيئة ستكون وبالًا على من يلتقطها أو يحركها".

شعر المتجمعون بإضماره نبأ وخيمًا أصَرهُ في صدره من زمن.

– ولو علمتم أن دابة الأرض تخرج من مكة، فهل قريتكم هي مكة؟

...–

– الطالع يشي بأن قريتكم ستنجب المهدي المنتظر، فاسجدوا لله شكرًا.

تسابق جميع الحضور لأداء سجدة الشكر، ونهضوا من غير نفض جباههم من التراب العالق بها!

***

تجمجم قدّار الجبلي بأرقام متباعدة وتمتم بكلمات خفيضة وأنزل عصاه الخيزران من علوها بعد أن أشار بإراقة ماء حول قدميه، وتحركت يده اليسرى في الهواء وسحب شاله الناصع البياض من على كتفه وضرس بين فكيه طرفا من أطرافه، وتقدّم إلى الأمام ناكشا المضغة المتلبدة لترتج تحت عصاه، ثم صوّب بصره في وجوه المجتمعين: "لن يستطيع التقاط هذه المضغة ودفنها إلّا رسول".

دهش الحضور من إشارته وتضاحك غالب موسى: "من فين نجيب رسول؟".

وقبل تهيؤ جاره عبده محمود للضحك، كان صوت قدّار يجلجل: "مات رجل عظيم وتأخر ظهور رجل أعظم منه".

نطق جملته خاشعًا وهبط من منبره متقهقرًا ومنسحبًا إلى الخلف، فتناسل الناس بعده كجيش نمل أفزعه طرق نعل تصاعد محرضًا الغبار للوصول إلى الأفق.

تبقى نفر قليل اخترقت تجمعهم صفية مسفهة تبلدهم واختطاف ألبابهم لما يقوله قدّار الجبلي. وعندما اكتشفت أنّ سالم البريكي فقد النطق، أمسكت لسانها خشية مما يُمكن أن يحدث لها.

بقيت صفية عاجزة عن فعل أيّ شيء، فدعت ابنها إلى حمل المضغة – قائلة: "احمل ماءك الثقيل المتلبد" – لدفنها قبل أن تنتن أمام أبصار مَنْ بقي من أهالي القرية، فأبان ظاهر عجزه وارتباكه: "لن يستطيع أحد الاقتراب منها أو التقاطها".

لم يكن مزاج والدته صفية رائقا ولم تكن الحالة تسمح لها بإفساح المجال لضحكاتها المتكررة، فشوحت بيديها في الهواء لكنّ خاطرًا برق في مخيلتها لتستعيد حوارًا أرعبها ذات ليلة ووصية ملحّة أن تُحافظ على حفيدها. تتذكر جيدًا ساعة الذعر تلك عندما صاحت: "ليس لي حفيد".

– سيكون لك حفيد هو آخر من تُسخر له الجنّ!

تضخم رأسها وغدا كمغارة ملقاه في فلاة تتردد في فجوتها البشارة.

– حفيدك... حفيدك... حفيدك... حفيدك... حفيدك... حفيدك... حفيدك...

فتجاسرت واتجهت صوب تلك المضغة لالتقاطها، فنزعت المضغة إليها كجنين يتلمظ حلمة أمه، وعندما تحسستها بين أناملها، صرخت بفرح غامر: "إنّها تنبض".

5

احتضنت صفية مضغة تلطخت بدم قانٍ، وانثنت على صنبور المياه تغسلها بعد أن أُوكل إليها مهمّة الغسل والدفن. دلقت الماء بغزارة متخلصة من سماكة طين تساقط متحررًا من لبد أمسك به. لم يدر في خلد صفية فعل بعينه. كانت منشغلة مع نفسها في مبادلة حوارية: "أين ستدفنين هذا البعض من كبدك؟".

وبصورة آلية، اختارتْ شجرة الرمّان المزروعة بيد سلمى حينما ألقت البذور كيفما اتفق في الفناء الخلفي لمنزلهما. لم تتوقع صفية – بتاتًا – أن تفسق البذور عن شجرة شبيهة بمن بذرها، شجرة تتغنّج في كلّ موسم بزهراتها البرتقالية المشوبة باحمرار خجل، وتنهي ذلك الخيلاء المفرط بالعديد من حبات الرمان اليانعة، وتقوم سلمى على القطف وإطعام أسرتها من ثمار شجرتها الأثيرة، محلقة جذلة ومقسمة أمام أفراد العائلة أنّها لم تذق طعمًا يُدانيها.

تنازعت صفية مع نفسها لوضع تلك المضغة أسفل شجرة الرمان لعلها تزهر عن حفيد يأتي في الخريف المقبل بدلًا من ردمها في تراب قاسٍ يميتها، تريثت لتختار شجرة الرمان كي يزهر حفيدها بين أغصانها الملتفة، ومع احتضانها المضغة أحسّت بنبض ارتعش بين أناملها، فأهملت فكرة الدفن، وشطف بالها برق من الاحتمالات.

في عصرية اليوم التالي، ظلت صفية مكروبة في ذهابها وإيابها بين النساء اللاتي خنقن الدار، وبما تنثره ألسنتهن من كلمات المواساة، وبروائحهن المتداخلة التي يغلب عليها النشاز، ولم تنبس بكلمة لمن يتربص – منهنّ – بحركاتها.

– الحياة في نموها تتسلق الشجرة نفسها دائمًا.

هذا الخاطر جعلها تتنبه إلى سؤال خديجة حيدر الناخر لقاع جمجمتها: "لم تخبريني أين ستدفنين بعض كبدك؟".

رقت للدموع الندية التي جرت على سهوب خدي خديجة حيدر، التي لم يمضِ شهر على دفن وليدها الذي عجز عن تخطى عامه الثاني، فوقفت على جنازته، وظلت ممسكة بجزعها، بينما انهمك زوجها بتعميق قبر اختطّه في الجهة الشرقية من منزلهما، ومع كلّ ضربة معول يتعالى، يهوي على ندب خديجة الحارق:

”وكيف تستطيع إهالة التراب على عمر؟“.

كان جزع عيني خديجة ساحرًا. لف فجيعتها بتمتمات مطلسمة حتى أنّ زوجها لم يستطع التغلب على لحظات الارتعاد التي دهمته بعدما أنهى دفن ولده عمر، إذ أقبلت عليه كوحش ضارٍ وخمشت بأظفارها هضبة وجنتيه خمشًا لم تسلم منه العينين، فلم يطب له المقام بموازاة فورة غضب خديجة المستمر، فغادر القرية ولم يعد إليها. قيل أنّ فجيعة خديجة في ولدها تسببت في خطف بريق عينيي زوجها، فلم يعد يرى بهما داخل القرية، بينما في خارجها يبصر دبيب النمل.

وبسبب تلك النتيجة، قرر البقاء ببصره صحيحًا على مجاورة عويل زوجته ضريرًا.

في انشغال صفية لإنجاز مهمّة دفن تلك المضغة، كانت تسترق النظر إلى عين سلمى وتخشى من جزعهما لو أنها رأتها تهيل التراب على مضغة كانت من الممكن أن تكون ولدها.

حاكت هواجسها بعناية في محاولة لاسترجاع حكم الصلاة على السقط، وتمنّت لو أنّ قدّارًا لم يُسارع بالانسحاب، فلربما أنار لها بصيرتها. ومن غير لوم أو تردد، عزمت على الصلاة على حفيدها حتى لو كان دمًا.

في حركتها الدائبة، أعدت شاشًا وقطنًا شديدي البياض، وقررت الإقدام على ما ليس منه بد، وركنت إلى شجرة الرمان بحفر حفرة عميقة بعض الشيء، ووضعت السقط بين لفائف القطن، وقبل لفها بقطعة الشاش صدمت وهجست لنفسها: ”المضغة لا تزال تنبض!“.

حرصت على كتمان هاجسها حتى لا تتحول إلى سخرية في أفواه النساء المحدقات في تحركاتها السريعة والمنتظرات جلوسها ليلقين على مسامعها مواساتهن والرجاء ألّا يصيب زوجة ابنها ضر بعد ذلك الفقد.

سارعت صفية إلى ردم الحفرة، ولفت السقط داخل لفائف القطن، وقد استقر رأيها على تعليق المضغة بين الأغصان المتشابكة لشجرة الرمان ريثما تتخلص من فضول أولئك النسوة، فوقفت أمامهن معلنة تنفيذها مهمّة الدفن على خير ما يُرام.

6

تحركتْ صفية باحترافية لص مدرب، إذ انتظرت جدّية الليل في أن يبسط مظلّته لتضعها على رأسها وقاية من تراشق ماء العيون على ممشاها. كانت جزعة كلّما دهمها توقع سقوط تلك المضغة من بين الأغصان المتشابكة لشجرة الرمّان وتلوم نفسها أنّها لم تُخبر ولدها ولا زوجته بأنّها لم تدفن تلك المضغة.

كانت سريعة الحركة داخل مساء رحيم. انزوت خلف منزلها، ومدّت يدها بين أغصان شجرة الرمان، فوجدت الطمأنينة تقتعد صدرها وازداد توهج فرحتها ببقاء اللفافة في مكانها. سحبتها بحذر بعد أن ألقت عليها ضوء المصباح المتحرك، ووضعتها بجوارها. كانت المضغة قد جفّ دمها، فجسّت ذلك النبض ليُلامس وجيب قلبها. جلست تبكي حينًا، وحينًا تُؤكد لنفسها أنّ تلك المضغة لم تمت بعد.

***

مضى نهار ذلك المساء طويلًا صاخبًا بين سرد الأحداث بزوائد كلمات اكتسبت المبالغة. وزاد في ذلك خبر قدّار الذي طاف القرية مرارًا مؤكدًا أنّ حدثًا عظيما سيحدث.

اقتعدت مقعدًا بين ثلاثة رجال أرضعتهم وكل منهم انفجر بطنه بلبنها، كانت تحاول التقليل من اندفاع ابنها في ذم قدّار – على غير عادتها – وحمدت الله أنّ رضيعها عيد الحربي أمسك دفة الحديث لتبعد عن ابنها هاجس اعترى ذاكرتها ولم تستبن كنهه.

وجد عيد الحربي بغيته في الحديث عن قدّار.

– هو من قاد التنبؤات، فهو مولع بمتابعة أسرار الحياة مصرًا على أنه مفتاح للسر الكبير، ودفعه إيمانه بهذا الدور أن يكون أذنا لالتقاط أدق الكلمات مع تمحيصها بما يمتلك من معلومات وخبرات اكتسبها من المنجمين ومن رجالات الدين الباحثين في أمهات الكتب عما سوف يحدث في آخر الزمان والمكان، ولو كان هناك علماء تنجيم، لربما اقتفى أثر جنونهم، فهو ممن ترك بصره معلّقًا في السماء يتابع كلّ نجمة ونجمة.

صمت عيد ليرى أثر حديثه في مرضعته وإخوانه بالرضاعة، وتابع اقتفاء كلماته مستذكرًا ما حدث في فناء دار التعمي – أبوه بالرضاعة – حين حف به الحضور ووسعوا له ممشاه فهلل مكبرًا: "هذه المضغة تحمل قدرًا على قدر".

وقبل امتداد مواعظ قدّار كان يتبادل النظر مع صفية التي كانت لا ترتاح لحضوره (كان هذا قبل تلك الليلة الدامسة). وعندما وقف أمام المضغة، كان وجهه ممتقعا فأخذ في ترديد حروف وأرقام منتفضا كأنّه ممسوس، أو صريع حمى لم تكن أمينة على ارتعاشات جسده، فبددت حركاته في اتجاهات مختلفة، إذ يذكرك بتبختر الديك بين دجاجات لا يجدن إلّا النقنقة، وفي كلّ حين، يومئ إلى صفية بنظرة مسترقة، كأنّه يمنع تقدمها أو الإتيان بإحدى جملها الباترة.

(كان هذا قبل انصباب كلّ المفاجآت التي ارتبطت بمن حاول حمل المضغة من مكانها).

قدّار لا يرتاح كثيرًا لصفية بسبب فضاضتها وقسوة كلماتها، فلطالما سفهت مقولاته أمام الجميع، لولا رؤية هدوء أعصابها وتقافز نظراتها، كأنّها تقول له أقبل أو افعل شيئًا يفضّ ذلك التجمع المريع والضجيج المختلط بسبب صياح أحمد المحنشي: "ستخرج دابة الأرض من قريتنا".

وكآلة كاتبة مهشّمة الحروف، تفلت ذلك التقرير من فم المحنشي ليتحول بيت التعمي إلى محشر للناس وللحيوانات والزواحف، وتمايلت الأشجار كأنّها انتزعت من جذورها لتغرسها في فناء بيت التعمي، ودنت السحب وفاض ماء البرك. كان شيء ما يحدث، وتلحظ تبادل المخلوقات لرؤية دهشة الكون حين يفيق من سباته، أفاق فجر شع في الصدور من غير علم بماهيته.

كانت لحظات فريدة أنارها حديث قدّار، فتجاوزت كلماته العقول الصلدة ورسبت في الصدور المتعطشة كأنّها قطعة من الجنة. أثناء ترقرق كلماته سكن الوقت كأن الزمن تباطأ لمنح الناس مدةً لكي تُفتح سجلات حكايات قدّار ويسمعوا ما لم يسمع!

وأولَ مرة، تستأنس صفية بمقدم قدّار. كان معظم الحضور على يقين أنّ قدّارًا يستطيع نزع المضغة من ذلك الطين اللازب وتفريق الناس بعد الدفن.

وفي لحظات الانتظار، أقسم عابد محلوي أنّ قدّارًا يسعى أن يشق الأرض لكي يثبت براهين معرفته بالأسرار الكونية، وأنّه مفتاح للأبواب الموصدة على المستقبل، فالحياة لديه دهليز ضيق يعبر منه إلى حيوات لم تكن لتخطر على بال أحد من الناس. لم يكتفِ عابد محلوي بما قال بل أوصل حديثه كأنّه العليم بمآل قدّار: "...

وكلّما قطع أيامًا تعكر صفوه وجزم أنّه لم يصل إلى ما يرجوه، فقد كان مهووسًا بعلم ما لا يعلم، يقوده إلى ذلك حدس يقيني يسبق به كلّ حادثة تقع. ولأنّه كذلك، استشعر عظمته، وبسبب فرط مخيلته التي تُغذيه بصور شتّى عن عظمته، لم يستكن على شيء".

تراكمت المقولات والحكايات ولا أحد يعرف منبع جريان تلك القصص، كلّ ذاكرة في القرية حفظت سيرته المجزئة، ووقفوا على حقيقة أنّه جاء من الغيب، لا يعرف منبت وجوده أيّ أحد،

وكان العجب – في بداية وجوده في القرية – أنّ طاعنًا في السن أشار إلى قدّار عندما رآه: "هذا الرجل لا يشيخ، فجناحاه تعبران به حقب الزمن المتلاحقة!".

هذه الملاحظة ظلّت ركيزة، وفي مأمن ممن يعرفها حتى إذا دنى سقوط ورقة أحدهم في الدنيا، أتى إلى قدّار باحثًا عن إكسير الحياة. وكم من صبي غدا جدًّا ومرّ على قدّار وهو ما زال واقفًا عند عمره الذي لم يتغير أو يتبدّل. وكلّ مَنْ عرف سرّه لم يعد في فمه سوى سؤال قصير باتر: "هل أنت خالد؟".

فيتضاحك في كلّ مرة، وينقلب إلى بيته مسرورًا.

***

دهم صفية فزع مباغت، فاستعاذت بالله وهي محنطة داخل ظلام دامس، بينما انشغلت يدها باختراق أغصان شجرة الرمان، مستشعرة بنبضات متسارعة أسفل يدها، فاستعاذت بالله راجية ما سكن في بالها، فلاح في خاطرها خيالات ذلك المارد الذي أوقفها أمام المخزن وأوصاها بحفيدها الذي لم يأتِ، تخيلته قدّار وهو يصر أنّ المضغة التي تجس نبضاتها تحمل قدرًا على قدر.

في ضوء مصباحها، اطمأنت إلى عمق الحفرة التي أحدثتها أسفل شجرة الرمان، وما إن همّت بدفن لفافة الشاش، حتى جرى تيار قشعريرة بجسدها، فهجست برعب فائض عن مقدرتها: "إنّ هذه المضغة لا تزال تنبض".

فدهمها الخيال نفسه واقفًا غير بعيد يردد بصوت لطيف النغمة: "ألم أقل لك إنّ حفيدك سيغدو ملك ملوك الأرض!".

نهضت راكضة تحمل بعض كبدها متلفتة إلى جميع الجهات كأنّها تلمح جيشًا باطشًا يتقدم لسلبها تلك المضغة. اتسع المكان كاتساع المسافة بين المشرق والمغرب، واستشعرت صفية أنّها تسابق الريح، وكلّما قاربت الدخول إلى البوابة الرئيسية لمنزلها، سمعت ضرب حوافر الخيل تنقر على أرض صخرية، فازدادت سرعتها، حتى إذا اقتربت من غرفتها، اقتحمتها كشهاب ثاقب.

7

استكانتْ صفية في غرفتها تُهدئ تسارع نبضات قلبها. كان وجيب المضغة يُسابق وجيبها، فأُلقى في روعها أن تقوم لتبحث عن رحم يضمُّ النبضات المتسارعة بين يديها. حيال كلّ ما حدث أيقنت

أنّ هذا لا يكون باطلًا أبدًا، فنهضت متوسلة أن يهديها الله إلى مأمن يكون رحيمًا وراعيًا لاكتمال نمو حفيدها.

حيرتها المسودة لجمت تفكيرها، فقررت أن تطوف في الركن المخصص لمبيتها لعلّ الله يهديها إلى ما يجب أن تكون عليه. سعت وطافت مرارًا بين الجدران الأربعة وهي تتلو بعض السُّور القصار التي حفظتها عن ظهر قلب. وفي دورتها السابعة، عرجت خطواتها إلى كتف غرفتها المنزوي: مكان شبه مظلم على الدوام لا تزاوره شمس أو إضاءة، فحملت تلك المضغة ووضعتها في لفّة قطن كثيفة وقطرت عليها قطرات من ماء زمزم.

ارتبكتْ قليلًا عندما سمعتْ صوت ابنها: "أين أنتِ يا أمي؟".

قفزت من ذلك الركن شبه المعتم والكلمات تتلجلج على فكها: "أنا هنا يا ظاهر".

عندما سألها لم يكن واجمًا وإن ظهر عليه انكسار خفيض: "هل دفنتِ حفيدك؟".

رغب في تعبئة سؤاله بحرقة الفقد التي تشعر بها لكنّها أمسكت به وهي تهز كتفه برفق لعلّها تُواسيه أو يُواسيها: "نحن نعرك في محنة الصبر".

استقبل ظاهر جملتها بعجلة وهو يذكر لها أنّ حوض سلمى لا يتسع لحياة مولود. كان هذا السلب الثالث الذي فرطت فيه بأمنيته، فأمسكت صفية لسانها عمّا أرادتْ قوله.

كانتْ تُريد أن تحكي له كلّ ما مرّ بها منذ ليالٍ ثلاث. كاد ينزلق فمها وتُخبره أنّ نطفته لم تجفّ أحداثها، وأنّه ما زال في الغيب متسع لأحاديث كثيرة، فأمسكت على سرها ولزمت الصمت.

– سلمى تعبة... هل بإمكانك الجلوس معها؟

– استعن بضامية.

لم يفكر ظاهر أن تكون الإجابة عن سؤاله الرفض البات، فقد دأبت تفانيًا لرؤية ابتسامة سلمى في كلّ حين. دخلتْ صفية إلى أفعال غرائبية منذ فقدها أختها التي غادرت الدنيا بعد ولادة متعسرة بمولودة لم تجد لها من اسم سوى ضامية لتضعها مع أختها سلمى تحت جناحيها. وتكفلت رعايتهما واختارت الكبرى زوجةً لابنها.

رغب ظاهر في الانصراف بعد تلقيه جفاء رد والدته، فعلّق وصية في أذنيها: "لا تغضبي من سلمى فرحمها لا يتسع لحلمك وهذا قدرنا جميعًا".

منذ ذلك الرفض لم تخرج صفية إلى أيّ مكان. بقيت رهينة محبس ذلك الركن المعتم، تسترق السمع لوجيب قلب يخفق بانتظام داخل لفافة قطن كثيفة.

حرصتْ كلّ مساء وصباح على تقطير ماء زمزم فوق تلك المضغة المتنامية في تلك الظلمة.

***

مضتْ ليالٍ وصفية تجالس هواجسها، وكلّما مر يوم، ازدادت فرحتها استطالة. كانت أثناء مرور الزمن تقطر الماء على تلك المضغة التي تتشكل يوما عن يوم.

أمسكت بحدّة المبصر لرؤية ذلك التشكل الذي يطرأ على المضغة، وجزمت أنّها تنمو وتتمدد. تمدُّد أطراف تلك المضغة أكسبها حبورًا فلق محيّاها بابتسامة عريضة تُؤكد نبوءة البشارة التي لا تخطئها العين، وتستلهم الوصية كما لاحت في مخيلتها تلك الليلة الدامسة: "سيكون لك حفيد هو آخر من تُسخر له الجنّ!".

هي الشاهد الوحيد على تبدل المضغة في تشكلاتها من "التغظرف" إلى "التعظم" والاكتساء لحمًا.

منذ تلك الليلة التي تلقت فيها أمرًا بحجب ذلك الدم الممضوغ، أيقنت أنها ستقف على سر عظيم، فأغلقت باب غرفتها وجاورت الظلام والصمت، وأطالت السجود، وقد سكن في فمها دعاء متفرد: "أرني يا الله بديع خلقك".

قبل ذلك، انتقت لفة قطن ناصعة البياض غزيرة الكثافة رطبة الملمس، وفي عمقها وضعت مضغة، دمًا مُلاكا ملبدًا، كأنّ أسنانًا لاكته وتركت أثرها قبل أن تكمل مضغها. عندما هدأ خاطرها ثبتت لفّة القطن في زاوية شبه معتمة وانتظرت.

ا ن ت ظ ر ت ان تظ رت انتظ رت وانتظرت انتظرت...

وانتظرت...

أحيانًا تستعيد صرامة ورجاحة عقلها (الميّزتين اللتين عُرفت بهما)، فتضمر التخلي عن مواصلة هراء ما سمعته من بشارة متداعية، وتتسلل إلى اليقين بإقناع ذاتها أن ما حدث مجرد صوت لم يكن له وجود سوى غبش زيّنه الفزع على أنه رسالة استلمتها فآمنت بها. وكلما همت بنفض حادثة الليلة الدامسة، أغراها خيالها بمواصلة الحلم بإيمان أنّ الحياة ما زالت متخمة بالأسرار. ومع كلّ نقض أو تراجع، تنتظر سطوع أشعة الشمس لعلّها تُغذي المضغة بنبضة جديدة تُقيم صلب الحلم الذي حلمت به منذ وقت مبكر.

عند كلّ إشراقة تستيقظ على ذلك الأمل، فتدسُّ جسدها الناحل خلف كتف غرفتها لإلقاء نظرة على لفافة القطن الكثيفة، لتزداد يقينًا أنّها تقف على سر عظيم، وكهاتف استقر في قِحف جمجمتها يقول لها: ثمّة حياة خلف كلّ شك.

رأت كائنًا يتشكل يوميًا، وقبل أن تُعلن وجوده تريثت والبشر يجرى في دمها ويزيدها حبورًا بأنّها رأت بديع خلق الله متخلية عن سؤالها: كيف لدم نبت في لفافة قطن أن يُزهر كما تُزهر وردة بين رمال صحراء جرداء.

استيقظت من نومها فزعة تسترجع صوتًا قرع أذنيها بنقر حادّ متقطع يتبعه غناء خفيض كأنّه يخرج من بين خياشيم مسدودة. نهضت على عجل تتلفع بطانية خيوطها من وبر سميك من الكتّان،

متتبعة مصدر الصوت، فكاد قلبها يتوقف. رأت اهتزازًا بطيئًا للفّة القطن الكثيفة ونعيرًا متكاسلًا يعلو حينًا ويصمت أحيانًا.

ألقت بكلّ بصرها على كائن يتحرك. كان يدفع بأطرافه الهزيلة الدقيقة فتحة أحدثها في اللفافة ويتشمم بكسل هواء اخترق رئتيه بوفرة. أسرعت صفية إلى تجهيز معجنة كبيرة وملأتها ماء وألقت تلك الدودة داخلها فإذا بها "تنغش" كأنّها تسبح في رحم لفظها قبل قليل. أخرجت ذلك الكائن السابح وأعادته إلى لفافة القطن وهي لا تعرف ماذا تصنع.

شهقت ناحت ضحكت وهبطت على الأرض ساجدة تتمتم بأدعية متلاحقة، وعندما نهضت، قبل مسح دموعها المدرارة، صاحت بكل ما تملك من صوت: "سلمى... ظاهر... سلمى...

ظاهر... ضامية... سلمى".

وكما وصلها نعير ذلك الكائن، صرخت بجميع من يسكن البيت، فتلقوا صوتها ذعرًا، ولبوا نداءها.

كانت سلمى لا تزال غاضبة من خالتها التي لم تزرها منذ شهور، مع أنّ المسافة التي تبعدهما لم تتجاوز تدابر غرفتين، لكنها استعاذت من شر غضبتها، أو أنّ أختها ضامية روضت غضبها. ويبدو أنّ هذا السبب هو الراجح.

كانت ليلة شتوية قارسة البرودة، انتفض من برودتها جسد صفية، فألقى ظاهر على مرفقيها بردة ثقيلة على بردتها، وحوّطها بذراعيه، ولحقت به سلمى، وضامية التي لامست أناملها وجنة خالتها: "خير يا أمي... سلامتك يا خالة".

حتى إذا استرخت في طمأنينتها، أمسكت بالجميع: "أحمل لكما خبرًا فريدًا؟".

قالت جملتها وابتسامتها تتسع، وبحركة مباغتة أمسكت ثديي سلمي: "أُريدُ أن أرى ثدييك هل يدران لبنًا؟".

استنكفت سلمى تلك المسكة التي عرّت صدرها: "هل جُننت يا خالة؟".

– أنت وظاهر اللذان ستصبان بالجنون، بل كلّ القرية ستشارككما جنونًا بجنون.

جذبتهم بيدها إلى الركن المظلم ورفعت قطعة طويلة من الشاش عن لفافة قطن اهتزت وصدر من عمقها أنفاس واهنة كاشفة عن رضيع لم ينمو جيدًا تعلّق بالحياة بأنفاسه ونبض قلبه.

رأته سلمى كائنًا أشبه ما يكون بدودة غرست في تربة حقل "تنغش" بين لفائف القطن، فأصابها الذعر ولاذت بصدر ظاهر، كلاهما تداعى في انتظار تحرك لسان الأم صفية، ولم يفيقا من دهشتهما، فصاحت بهما وهي ممسكة كتف ضامية: "ها هو حفيدي يخرج كنبي ليس من يقطين، بل من لفائف القطن".

وفي فرحتها الغامرة، جذبت سلمى من صدرها: "لا تقولي إنّك غير قادرة على در اللبن لحفيدي؟ فقد صبرت عليك كثيرًا".

قالت جملتها ضاحكة في وجوه لم تستوعب ما حدث، وجذبت سلمى.

– الآن لا أريد منك إلّا اللبن!

انثت سلمى على فم يكاد يكون خطًّا غير مرئي رُسم على جلد رقيق جدًا، وكم كانت دهشتها حينما التقم ذلك الفك الرخو حلمة صدرها.

لم يكن المكان يستوعب ذلك التجمهر.

للمرة الثانية، ينصب أهالي القرية في برحة بيت ظاهر التعمي، تنادوا لرؤية رضيع المضغة، ومع انصبابهم المتلاحق، حدث تزاحم وتدافع ولغط، وتنافرت الكلمات والجمل والأصوات، وتطاولت حكايات في ذكر الكرامات التي ظهرت على الرضيع، وكان كلّ لسان يوصل ما سمعه إلى مسامع الآخرين المتربصين بأيّ همسة، فيتزايد الحضور رغبة في مشاهدة المعجزة.

ارتفع صوت حاسر: "تقول الجدّة صفية إنّ حفيدها نطق بالشهادتين ولم ينغزه الشيطان!".

فارتج المكان تسبيحًا وتهليلًا، ولم يتوانَ حاسر الطواف بالمجتمعين ناثرًا حبيبات المسك والزعفران بدلًا من وضعه في المجمر الذي يحمله.

– في تالي الأيام، سيكون لقريتكم شأن عظيم، فقدموا إلى يومكم ذاك النذور والجزور.

كان حاسر مؤتمنا على إيصال رسالة قدّار من حيث لا يعلم أحد من أهالي القرية، سمع الحضور أنّ قريتهم ستكون مهبط البشارات وأول قرية سوف تجاهد لنصرة رضيع المضغة.

شعّت كلمة المناصرة للرضيع المعجزة من ذلك التجمع، فتقافز كثيرون إلى جلب خرافهم وأبقارهم وأراقوا دما غزيرًا. كانت الدماء تشخب من حناجر الخراف والأبقار فائرة حارة، فاستجابت النسور والحداءات والكلاب والجوعى والمشردون لكي تُبرد تلك الدماء جفاف بطونهم.

وتعالى صوت كلّ من لم ينحر بإطلاق النذور، فهناك من نذر الصوم، وهناك من نذر الإنفاق، وهناك من نذر الصلاة تهجدًا، وهناك من نذر تحمل نفقات من يريد الحج، وتعالت الأصوات مهللة.

داخل بيت ظاهر انشغلت الأسرة الصغيرة باختيار اسم للرضيع، كان صوت الجدّة صفية حازمًا: "سموه وحيًا".

قفز ظاهر كالملدوغ: "يا أمّاه، هل تُريدين أن يُخرجنا الشيخ عوض من الملّة؟".

انتصبتْ قامة الجدّة صفية كرمح احتدّ في معاركة أجساد لطالما رغبت في هتك تنطع بعضها، وتعمّدت رفع صوتها: "لم يتوقف الوحي بتاتًا، وابني هذا تلقت مضغته الوحي فنهض من الموت ليكون خلقًا جديدًا".

***

طغى الانشراح على ملامح الجدّة صفية، فبعد أن خرج حفيدها من لفائف القطن، أيقنت بحلمها القديم، بأن يحملها حفيدها على ظهره لأداء مناسك الحج.

فقد رأت أيام عرسها أنّ بطنها ينفضّ عن جواد يركض في أرض الحجاز، ولمّا ساورها ذلك الحلم، لم تحج أبدًا انتظارًا للجواد الذي رأته في منامها يركض بين مكة والمدينة.

كانت جذلى، تصب الزغاريد صبًا وهي تتلقى التهاني من المهنئات، وتشير إلى الرضيع الذي استطاع وزنه مقارعة وزن هر وليد: "هذا الخديج سيملك الدنيا".

لم تُقم احتفالية في القرية مثل احتفالية ابن المضغة، فاتسعت الدعوات واستجاب لها الأعيان والسقط معًا، وقد عمد ظاهر التعمي إلى تكليل فرحته بدعوة أمير القرية مع معرفته بالعداء المتأصل بينه وبين قدّار الذي كان أول من عرف أنّ تلك المضغة سوف ينفخ الله فيها لتكون طفلًا.

***

لم يتذمر قدّار من تصرف صفية عندما اختطفت الخديج من بين ذراعيه رافضة أن يُكبّر أحد بالأذان في أذني حفيدها إلّا هي، وثمّن مقدار عمق لهفتها لضم حفيدها إلى صدرها في تحقيق حلم رأته مع أول يوم وضعت فيه ابنها ظاهر (وهو الحلم الذي سبق رؤية الجواد الراكض في أرض الحجاز)، وقد داوم الحلم على زيارتها في مناماتها، وكلما روت حلمها، تسرده ببطء المستلذ، فتقول إنّها رأت شابًا يافعًا وضّاء الملامح شديد الاعتداد متريث التفكير سريع العون، كان يقودها بين منحنيات ومسالك الجبال الوعرة، وهي تتنكب كبقرة صفراء لم تألف النزول من المنحدرات السحيقة، وعندما سألته: "من أنت؟"، صمت الشاب، وعندما لم يجيبها، حارت أمام صمته، فألحت عليه: "من تكون؟".

فسارع إلى تقبيل رأسها باسمًا: "أنا حفيدك!".

ظل هذا الحلم يكبر مع الأيام ويتشكل في صور عدة حتى أوشك على الانقطاع كلّما أسلبت سلمى، ومع كلّ سلب، تيقن صفية أنّ حفيدها يختفي في بطن ما من بطون الإناث، ولم تكن تتوقع أن يكون ميلاده معجزة!

***

في مكتب تسجيل المواليد، كان الموظف معكر المزاج وأوشك على إغلاق دفتر التبليغ لقرب انتهاء الدوام، ولم يقلل من خصامه مع نفسه إلّا الروح البشوشة التي يتمتع بها ظاهر التعمي، تلك الصفة التي تفاخر بها صفية بين جاراتها: "ظاهر لم يأخذ من جمالي سوى ضحكتي".

تناول الموظف قلمه الناشف وضغط على خانة اسم المولود: "ماذا نويت تسمية ابنك؟".

– وحي!

– ماذا؟ وحي! هل جننت؟

– لا. فقط، لي رغبة في أن أسميه وحيًا.

استأنف الموظف خصامه مع نفسه، فقطب جبنيه بحاجبين كثيفين تاركًا إصبعه داخل صوان أذنه يعركهما في محاولة لإيقاف هرش نشأ بسبب ارتفاع سقف حجج ظاهر على تسمية ابنه بالاسم الذي يروق له، وكلقاح ضد اللوم الذي نخر مسامع الموظف الذي تأفف وناول ظاهرًا ورقة مراجعة، وقطم آخر أنفاسه بجملة مبتورة غير قابلة للاستطالة: "عد بعد أسبوع لتحصل على شهادة الميلاد".

حملت بداية الأسبوع والأيام التي تلت مراجعات عدة لمكتب المواليد، ومحاولات لتثبيت اسم المولود وتلافي خطأ الموظف الذي ثبّت اسم وحيد بدلًا من وحي.

ولم يستطع أحد تبديد ثورة غضب الجدّة صفية سوى قدّار: "حفيدك معجزة الكون، ولا بد من إخفائه بكل الطرق، فلنخفه خلف اسم وحيد، فاسم وحي دال على مدلول سيكون أثره في المستقبل، وتغطيته بحرف الدال وحي...د، دليل يؤكد أنّه وحي، فلا تثيري الزوابع على حفيدك مبكرًا".

سكنتْ تمامًا وراق لها ما قاله قدّار، فغدت تُخفي أيّ شيء يُحدثه حفيدها من كرامات.

10

انتشر خبر وحي...د بين منعطفات القرية كأنّه نزل من السماء، وكانت ولادته منبعًا لتشعب الحكايات، وموردًا لتحقيق المعجزات التي تظهر على يديه.

جال حاسر القرى القريبة والبعيدة يروي عما يحدثه وحي...د من كرامات.

***

حاسر شخصية مولعة بنشرات الأخبار، فقد ترك سمعه يجول مع مؤشر الراديو، فانسكبت في أذنيه مياه المحيطات عن كلّ خبر يبحر عابرًا خرائط العالم، وقد أمسك بعادتين: نقل الكلام من غير تمحيص، وعته لم يستطع إخفاءه، فتمددت على سيرته كنعتين أصيلين، وأيضا كان يسير في القرية بعقلين:عقل يؤمن بخرافات قدّار، وعقل يعيد دلق الأخبار التي سمعها طوال النهار بحذافيرها.

لم يشغله في الآونة الأخيرة سوى البحث عمن مات من الزعماء في ليلة ولادة وحي...د.

ومن صندوق ذاكرته المثخنة بالأخبار، استعرض زعماء العالم ومَنْ فنى منهم في اليوم التالي لمولد وحي...د. بحثه أعاده إلى خزينته المتخمة بالأخبار والأسرار. وأثناء تقليبه بين خردوات الشخصيات السياسية، انبعثت من أعماقه أمنية أن يكون الموعود بالنبوءة زعيمًا عربيًا بعينه. أدار قنوات الأرض لعلّ أحدًا ينبئ بموت ذلك الزعيم، لو كذبًا. عجز من الوقوف على من مات ليلة البارحة من أسافل الساسة.

بقي طوال الليل فاتحًا مجرى سمعه متمنيًا أن تتحقق النبوءة، حتى إذا أوشك على النوم، تراخت ثقته بما أخبر به قدّار عن موت عظيم.

وفي منتصف النهار، تزلزلت القرية بسماع خبر وفاة ذلك الزعيم الذي ملّت منه الحياة بعدما منحته كلّ الرحيق، حتى أنّ عروق الأرض ضمرت بسبب وجوده، ومع موته اهتزت وربت!

انطلق حاسر من بيته متخففًا من بعض ملابسه ومحملًا بالاعتذارات التي صاغها في مخيلته كون هواجسه قادته إلى تكذيب نبوءة قدّار لمدة وجيزة امتدت بين إغماء النوم والإفاقة منه.

طرق الباب الخارجي طرقات عدة، وعندما لم يُفتح له، صاح بأعلى صوته: "أنا أحد المؤمنين يا شيخنا فكيف تغلق بابك في وجهي؟".

بذاك التوسل، تراخى له الباب الخارجي لبيت قدّار، فامتدت الخطوات وفاضت الاعتذارات، فاكتسب حاسر الكرامة من الولي قدّار؛ منذ ليلة سقوط المضغة والناس ينادون قدّار بالولي.

انطلق حاسر بين الأزقة الملتوية والأحياء المسقوفة بالحكايات والشوارع الفارغة من أيّ فكرة ليكون قناة دعائية تنقل كلّ ما يدور في محيط وحي...د، فروى ما لا يقال عن نبي، ذاكرًا المعجزات المصاحبة لوحي...د منقذ البشرية من الهلاك، فتوافد الناس من القرى المجاورة زرافات ولكلّ منهم ما نوى. فغدا فناء بيت ظاهر التعمي مأوى للمرضى والمسحورين وأصحاب العاهات والحاجات، وسرعان ما أقيم سوق يلبي احتياجات المقيمين والزائرين وطالبي الكرامات، بعدما سطا نعيم القروني على مساحة أرض شاسعة وازت بيت ظاهر من الجهة الشرقية، وحول تلك المسافة الشاسعة إلى متاجر لبيع كلّ الأدوات العظيمة والحقيرة. ووجد قدّار نفسه وليًا يمنح القادمين بركة المولود برش الماء والدعوات على كلّ من يأتيه طلبًا لبرأ أو رزق مع توزيع النصائح وفق رؤيته لسحنة القادم إليه.

واتسع رزق ظاهر التعمي فوسّع متجره لبيع الأواني الفخارية المزينة بآثار بصمات ابن المضغة، وتمادى في توزيع بول المولود كبركة تشفي الأمراض الظاهرة والباطنة ولم يكن ليفعل هذه الأفعال لولا نصيحة قدّار بتعميم البركة وإشهار نبأ المعجزة الساطعة من أكناف قرية مصطفاة بخروج المهدي المنتظر من بين أركانها!

11

تسلل ضوء خافت من كوة لغرفة متداعية فاضحًا قصة عشق: "هل جننت؟".

ندهت ضامية بسؤالها وهي ترى عشيقها حمد متسللًا لرؤيتها. جاء مع الضوء مصاحبًا له في ارتعاشه ومسحوبًا بأمنية احتلال كامل قلب عشيقته.

كانت الخشية من إفاقة الجدّة صفية لكنّ أمواج العشق أغرقت أيّ خشية.

اجتمعا مع ضوء انشقاق الفجر، ضوء تسامح مع الكون، وقد مد أطرافه لأيّ أثر عابر سواء أكان لعاشق أم ريح أم مطر أم شمس متلصصة.

استقرت الكوة عشوائيًا من الجهة الشرقية كأنّها ثقب سماوي جاء ليقطر بالأمل لقلبين أثخنتهما جراح البعد، فاجتمعا تحت سقف غرفة قادرة على فضحهما بمجرد مرور أيّ عابر. ومع صلصلة أجراس بقرة الجدّة صفية، أفاقت ضامية من سكرة الوجد لتنهر حُمّد وتحثه على الابتعاد. هي لحظات سريعة ومباغتة سرعان ما انفلتت من عقالها ومنحت الضوء استكمال إيقاظ القرية من نومها.

– احرص ألّا تراك أمّي صفية.

وكما جاء ضوء، غادر عاشق.

***

أحسّت الجدّة صفية أنّ ثمّة حبًا زُرع وجوده في بيتها. رأتْ حُمّد ينسل من بين حطام الوقت، ولم تشأ تعرية ستر قلبين يتواريان من عيون العذال. بقي هاجس ملح يطرق بالها: كيف لهذا العاشق ستر عشقه في بيت غدا مزارًا للجميع؟

كانت تريد ضامية لتساعدها في تجهيز وجبة الإفطار لكنّها تراجعت عن تلك الرغبة لتتيح لها فرصة ضم رائحة حبيب غادر للتو.

فنشطت لحلب بقرة عجفاء قادتها إلى خارج مربطها واقتعدت على حجرة غليظة مفلطحة وأمسكت بذروع بقرتها وبالها مجنح في قصة عشق ضامية وحمد.

أعادها إلى الواقع ضحكة لها رنة الخجل حينما سمعت حليمة تردد سخريتها: "شخب اللبن يذكرني بتبول الرجال الذين لا تنتصب لهم راية".

نفضتْ الجدّة صفية خيالاتها تمامًا لتعود إلى الواقع: "الله يفضحك يا حليمة".

اقتربت حليمة حتى أمسكت بأذن البقرة ولمست ظهرها وهي ما زالت تشير إلى فحوى نقمتها من زوجها الذي يجيد التبول فقط، وكتمت بقية سرها، وإن كانت تود ممارسة البوح كاملًا، ولم تجد مخرجًا من ترددها سوى التغريب بحديثها عما هو حادث في حياتهما العامة. كانت الجدّة صفية تعلم جيدًا ما هو حادث في بيت حليمة من شقاق، فخففت عنها: "البيض إذا فقس لا يحتاج إلى ديك!".

تأوهت حليمة وأرادت نفض هواجسها: "ألم تعلمي ما هو حادث في القرية؟".

– وما ذاك؟

– يُقال أنّ غرباء دخلوا إلى القرية لهم سحنة المردة وعيون تكشف عمّا تم تخبئته تحت الجلد، لهم معاطف تغطي رقابهم ولا تعرف أطولهم من أقصرهم، جاؤوا يبحثون عن حفيدك؟

– حفيدي! ولم؟

– لا أحد يعرف لكنّ زوجي لا يُجيد في الدنيا سوى سماع الأخبار، ويقول إنّ الغرباء هم سحرة يبحثون عن ابن القطن؟

نهضت الجدّة صفية من مكانها متحفزة خائفة، واتجهت مباشرة إلى حاسر: "أخبرتني حليمة أنّك على علم بمن يُريد إيذاء حفيدي، فما الحكاية؟".

– حفيدك هو فاتحة الكون ويُريدون منه إخراج كنوز الأرض!

ارتاعتْ الجدّة صفية وهجستْ: "وما العمل؟".

– سوف يصلون إليه حتى لو وضعتيه في قمقم!

...–

– ليس له من منجى غير قدّار.

م = 4

كل هذه الحكايات عشتها خارج زمنها لأعيش في زمن يجاورها أو يبتعد عنها سنوات مديدة.

ولدت في عام...

لحظة!

في أيّ عام ولدت؟

الزمن ثوانٍ متحركة تشد بعضها بعضًا، وأقرب حالة تشبيهًا بها هي الصفائح الصخرية المذابة المصهورة بين ضغط وحرارة، فملت من تزاحمهما لتبحث عن انفجار يريحها من كلّ ذلك العنت.

الانصهار الزمني يحافظ على سلاسة انتظامه الخارجي لكي تلتقطه الذاكرة الحافظة، لم أعرف إلى أيّ زمن أنتمي، ففي الانفجار الأول، كنت ذرة سبحت في كلّ الأزمان ولم تعد إلى انتظامها، ولكي أتوازن مع حكاية ما، ارتضيت أن يكون لي إطار حكائي أُسايره ولا أُسايره في آن.

كلّ الأحداث التي عبرت أسرتنا الصغيرة – التي ارتضيت أن تكون مركزًا حكائيًا لحياتي دون الأنفس الأُخرى – تجد لها جدّتي تاريخًا في ذاكرتها، وحين تقعدنا أمامها ترفع عقيرتها.

ظاهر ولد في أيام اغتيال الملك فيصل ويكبر سلمى بسبع سنوات، وضامية خرجت للدنيا بعد أن فجّرت رحم أمّها في سنة دخول جيهمان إلى مكة، وسفر أبي إلى الحجاز لأداء الحج كان في سنة اغتيال السادات، وموت حقلها الزراعي كان في العيد الكبير الذي أعدم فيه صدام حسين، وعندما تصل إليّ تنقطع حبال تذكرها وتختم قولها: "ابني هذا لن أتحدث عنه أمام العامّة أو الخاصّة".

عندما زرتها في حقلها وسألتها متى ولدت يا جدّة، نفرتْ: "أنت لم تُولد! أنت نفس سابحة في كلّ الأزمان!".

حجّتها أنني نطفة تنقلت في أرحام عدة ولم يستطع أيّ رحم المحافظة على نصاعة قلبي إلّا لفافة القطن التي فتشت عن وجودي كلقاح متناثرًا بين ذرات الكون.

غدا الزمن منفلتًا وأنا أؤمن أنّ المعجزة هي حالة انفلات من القوانين الفزيائية، ولولا الأوراق الرسمية، لقلت أنني موجود من بدءِ الخليقة وسوف أكون آخرها.

– هذه هي معجزتي!

تنتابني هواجس كثيرة توصلني بالماضي السحيق والمستقبل البعيد. عفوًا قلتُ هواجس... لا لا لا لا لا، هي حقائق كي لا يُقال أنني مريض بالانفصام، فلا شيء ميت.

فإذا كنّا نفحة من روح الله، فلا يُمكن أن نكون أمواتًا في أيّ نقط زمنية، وإذا كانت النفحة هي أمر الله، فلا يُمكن لأمره أن يموت ثانية، فالله ليس له ماضٍ؛ هو الأول والآخر.

***

هل أحتاج إلى مصفف ذاكرة؟

أنا ابن جدتي، فلا يقف أحد يسألني عن أمي وأبي، كنت أجيب بهذا الجواب عن كلّ من زارني في طفولتي، وعندما غادرت سنواتي العشر، أمسكتني من كتفيّ تنهرني: "أنت وحي... فقط وحي".

هل كنتُ محتاجًا إلى توثيق معاهدة بيني وبين نفسي!

أبي قذفني في لحظة نشوة عارمة وتخلى عني في رحم لفظني بعد أربعة أشهر ولم يكن أمينًا على رعايتي. فماذا أكون سوى أنني وحي نُزل على هيئة لحمة غليظة ممجوجة من بعد مضغ على غير استواء!

لأكون وحيًا في كلّ زمان وفي كلّ مكان، فأنا لا أحتاج إلى التأطير!

***

ورثتي الوحيدة الماء والتراب، والأرض وريثة الناس.

– الرمل حياة.

هكذا كانت تخبرني جدتي وهي من اختار لأبي مهنته أن يكون فخارًا. لم يغدرني الطين بتاتًا، ففي كلّ تنقلاتي لا بد من حمل الطين، فهو الحقيقة الدّالة أنّ الأرض مقبرة الكائنات، ونحن نعيش في أرض أخرجتنا وسوف تستعيدنا بلا شك. واستعادتها لنا تكون بتجفيف الماء من عروقنا. وكل

شيء به ماء هو حياة، حتى إذا تم نشرنا وتجفيفنا لزمن مديد أو ضئيل، أعادتنا الأرض إلى تربتها من غير ماء.

الآن، بعد سنوات طويلة، أحسست بنقص حنان الأبوين.

كان الرمل ملاذي، فكلّما اشتقت لمصاحبة إنسان لأُفرغ في صدره كلّ وساوسي، أكوم رمالًا وأغدق عليه الماء إلى درجة الاستواء وأجسمه كما أشتهي وأدلق عليه بوحي على قدر اشتياقي إليه. متى اشتقتُ لأحد أمضي وقتًا في التجسيم، حتى إذا استوى، وقفت أمامه منحنيًا: "نعم أنا أحبك**!**".

30 = هـ

لم يعد مثبتًا في ذاكرتي سوى بقع من أحداث لا يستقيم أولها مع آخرها. في سنوات عمري الأولى، هلَّ على القرية خلقٌ كثر تتركز رغبتهم في رؤيتي والحديث معي.

أُطلق عليّ أسماءٌ عدة، وكل اسم يقود جماعة من الجماعات المنتشرة في المعمورة للبحث عني!

روت لي جدتي صفية أنّ حدثًا نبّه حرصها ويقظتها لحمايتي بكلّ ما أوتيت من قوة.

في ليلة صاخبة الأفراح، أُقيمت ثلاث زيجات في وقت واحد، حضرها أبواي وتكفّلت الجدّة صفية بالبقاء معي رعاية وحماية. وقبل انتصاف الليل بثلاث ساعات، تسلل أحد رجال المعاطف الطويلة إلى منزلنا.

– أهذا الجني الصغير ابنك؟

– هو ذاك.

سحب ذراعي وأخذ يتأمّل راحتَيْ يدي.

– سنعود لرؤيته عند بلوغه العاشرة.

وانحنى لتقبيل رأسي. ساعتئذ أطلقتْ جدّتي زفرة كبيرة ما زلتُ أحسّ بهوائها إلى الآن.

***

وفي زيارة مباغتة قدم إلى القرية شيخ المتصوفة متسلحًا بتوصية من الأمير (لا أذكر اسمه الآن) للحديث معي. شيخ له هيبة ووقار تخلّى عنهما عندما رأى التماثيل التي أنحتها، فقد اعترته انتفاضة الدراويش وأخذ يُردد:

– الله... الله... الله...

كانت اللحظة ضيقة لا تستوعب كثيرًا من التفاصيل. وعندما اتسع له الزمن، أمسكني من ترقوتي، وزجرني بغلظة: "كيف تتمكن من نحت هذه الأشياء كأنّك إله؟".

أحيانًا أكون فطنا، وأحيانًا تسيل الكلمات كريق دبق؛ لم يكن الفم أمنيا على رصانة صاحبه. تستفزني كلمة المنطق، فهي تدعي الوصول إلى النتائج بعقلية منظمة، في حين أن حدوث الأفكار قائم على الفوضى، عشرات الأفكار تنشأ في أزمنة متناهية الصغر، والأكثر ضجيجًا منها يخرج إلينا على أنّه منطق الأشياء.

ليس هناك منطق، بل ظهور زمني، ويتلاشى كلّ ما يعتقد أنّه منطق، فالمنطق تالٍ للحقيقة، والحقيقة تسحبنا إلى تفاصيل وجودها، ولهذا كلّ ما هو غيرُ مدركٍ حقيقة، حتى إذا تجسد، ظهرت مفردة منطق.

قبول كلّ الأحداث التي أستشعر أنني عشتها (بكل تعدديتها) هو المنطق بالنسبة إلي، فالإنسان خلق من أمشاج كلّ جزء منها خَلَق منطقه الخاص وفق زمنية متقاربة أو متباعدة تكون الأفضلية لمن كان ضجيجه عاليًا سبّاقًا في قمع الأجزاء الأُخرى. وكلّ أمشاجي تناثرت في النظر لأكون ألف نفس وألف إرادة.

وبكلّ صفاقة أو رصانة متعمدة، أقول: أنا وحي!

فقست في هذه الدنيا ملفوفًا بقطن، وهذه الهيئة والنفسية التي أوجد بها أكون موجودًا وفق المعجزة التي ظهرت بها، أحسّ بذلك والمعطيات تدفعني أن أكون وحيدًا متفردًا بوجودي، ومعرفتي الأنفس التي عشت بها تجلي السر المكنون. إنّ أعماقي ألف عمق موزعة على أنفس عدّة، وربما أبث لأحدهم عن كياني وفق التضاريس الجبلية التي يكون عليها، بينما أبث لشخص آخر وفق التضاريس البحرية أو الهضاب أو السهول، أو وفق درجة انصهار الشخص أو تجمده أو طراوته أو قسوته. لهذا، كلّ شخص يُشكلني داخله ضمن تضاريس نفسيته الخاصة به، إذ لا توجد حقيقة لمعرفة الناس. وتعدد أنفسي مكنني من الوقوف على تربة الأنفس التي أُصادفها. وهذه معرفة تتضاعف وتضمر وفق اتساع اللحظة أثناء ادعائك أنّك عرفت، عرفت نفسك أو عرفت من يحيط بك.

يدهمني يقين مباغت أنّ أعماقي تضج بأنفس سكنت أعماق كلّ شيء، ولكلّ منها أرض وسماء ووقت.

ومع خروج أيّ قرار أفعله، يحدث شجار وصراع بين كلّ تلك الأنفس، والأقوى في الصرعة أكون أنا في لحظتها، منتصرًا وداعمًا لما تشتهي النفس الفائزة. وفي كلّ مرة أتعرف على شخص، ينبعث من داخلي لا يُشبه من سبقه أو لحق به، اللهم أنّ جميع تلك الأنفس مسجونة داخل هذا

الجسد، فيظنّ الناس أنني واحد لكنني أُمّة كاملة، كلّ واحد فيها مستقل، كلّ منا كون مستقل نتجمع داخل جسد واحد بطريقة تجاذب الكواكب وتنافرها.

– فأيّ من الشخصيات أحبّت ثَنْوَى؟

حقيقة، لا أكاد أُميز أيّ شخصية ممن تسكنني كانت الأكثر صرعة ففازت بهوى ثَنْوَى.

هل هذه المعضلة تبين هيامي بنحتها أو رسمها على صور مختلفة ووفق مزاج الشخصية التي أحبت ساعتئذ!

***

مضى على فراق ثَنْوَى ثلاث سنوات، وكلما تباعدت بيننا السنون، جاءت فتية.

غمّازتا خدّيْها تتعاظمان كلّما نضجت على محياها سخرية لاذعة. واستقامة أنفها وارتفاعه يشيان بعظمة كبرياء مفرط، وتلجم خيلاءها كلّما عنّ له التواضع فقط. يُمكن لها تمرير طرف رمش إذا أرادت أن تسحر عابرًا ما. تعرف كيف تُحرك أمواج غيرتي حين تفتح مغاليق الكون لتنشر جمالها تحت أشعة ولهيب العيون الباحثة عن نظرة منها وهي سخية في نشر جمالها على البشر كاستعراض، فتحط بعينيها على وجوه المارة لتزيدني كمدًا. تحرص على مضاعفة مرضي بها، فتزداد الحمى تشعبًا بين العصب والعصب عندما تحقن أوردتي بسيرة من مرّوا بين شرايين قلبها.

أنام وأستيقظ باحثًا عنها، فأجدها مسرفة في الظهور بين أودية وشعاب أحلامي، وفي كلّ ليلة، تسلمني للهباء، لأكون تائهًا بها وفيها.

كثيرًا ما يتراءى لي في منامي بيتنا القديم، وتأتي معه كركن أساسي من ذلك الوجود. هل تعلّقت بها صغيرًا؟ أكاد أجزم أنني أحببتها منذ الأزل.

ليس لديّ من حلم سواها. أبحث عنها في كلّ الأمكنة فلا أجدها إلّا على شاطئ البحر مستلقية كحورية خرجت من لجج الماء عذبة، شهية، وشبقة.

لا تُريد شيئًا سوى أن أشرب رحيقها لكي أغيب فيها كقرص شمس خبأته في ليل بعادها.

– إن لم أدفن أحلامي، فسوف أغرق لا محالة.

فكرتُ في قتل أحلامي، وفتّ عضدي عمق المحاولات، فكيف يُمكن لي التخلص من طوفان الشوق هذا؟

كانت فكرة مجنونة لكنني استسغت تنفيذها. الأحلام لا تأتينا إلّا عندما نعلق في شرك الرغبة أو الفزع. وأنا لا يدهمني الخوف بتاتًا. مقيم في محيط الرغبة. الرغبة في كلّ ما تجود به الحياة، فهل حبي لثَنْوَى رغبة؟ كيف لو أنني ضاجعتها، هل أخرج من هذا الشرك؟

يُقال أنّ الجمال إذا نكح فسد!

– هل أختبر نفسي بين الرغبة والحب؟

فلو تسربت إلى دهاليز فتنتها، ونزعت أوراق التوت من على بدنها، ومكثت بين أنفاسها وحمحمة رغبتها، ألعق هضبة وسهول جسدها المنعم بثراء باذخ، وأكون قد ركزت وتدًا يروض جموح صهيلها، عاصرًا الغيمتين الناضجتين المشرقتين في شمال صدرها حتى يهطل ماؤها، فأتبلل! عندئذ أكون قد نضحت كلّ رغبة أستطيع بعدها قياس مشاعري: هل حبي لثَنْوَى رغبة أم حب.

لو أنني فعلت ذلك، ولم أطق ابتعادها عني، عندئذ سوف أتيقن أنني أحبها، فالحب جامع للرغبة والبقاء. والرغبة تنتهي بإشباع الوطر وبعده لا ترغب في البقاء!

كيف أؤدي هذا القياس لكي أنحر قلقي؟ أأحبها أو أرغب فيها؟

***

كلّ النساء رغبة إلّا ثَنْوَى، فهي الحب.

كلّ امرأة ألتقي بها أجد ثَنْوَى مختبئة فيها. أصبحت كلّ النساء ثَنْوَى، وتجاسرت بفضح عشقي لها أمام كلّ امرأة أُقيم معها علاقة وقد تخلصت من عشرات النساء لأنتهي بالقول: "ثَنْوَى كعبة النساء!".

هي تسكن كلّ خلية من خلايا هذا الجسد حبًا وليست رغبة.

اختفت فجأة ولم يعد لها أيّ أثر. غابت عن كلّ مكان إلّا عن مخيلتي، فهي بازغة بها كنجمة الزهرة تمارس غوايتي في كلّ حين، وتظل ضاحكة لأظل باحثًا عنها ومتسائلًا من أيّ الأماكن يهبّ نسيم رائحتها.

– هل ماتت... كما أراد قدّار إفهامي؟

نعم، هل حدث ذلك؟ وإن حدث، فسوف يخبرني التراب.

في كلّ مكان أصل إليه، أخمش حفنة من التراب وأخلطها بالماء، فتتطين، أكورها جيدًا حتى يسيل زلال الطين من بين يدي، فأتلمظ ماؤه فتعتريني فرحة غامرة:

"التراب يخبرني أنّ ثَنْوَى لم تمت".

ف = 60

ليس لدي الوقت لإفهام كلّ من رآني أنني مجموعة أنفس.

بعد غيبة ثَنْوَى أجزم ألّا أحد رأى ملامحي، كأنّها حملت وجهي معها وغيّبتني عن وجود كلّ نفس أحملها!

يُمارس قدّار ألاعيب مكشوفة لمن أدمن مصاحبته، فهو كحاوٍ هندي وضع أصَلَةً في جرة جافة، وكلّما أراد الاستعراض بوداعتها قبل وحشيتها، نفخ في مزاميره لتخرج رأسًا مرعبًا له فحيح يتجمد أسفل فوهة الجرة. هذا مشهد مغرٍ لمَنْ يُشاهد قدّار لأول مرة ويصبح مبتذلًا لمَنْ أدمن مشاهدته. وفي كلّ مرة، يسيل ويتقطر كذبه من على صوان أذني بلزوجة مستفزة. وقفت أمامه صارمًا: "أين خبأت ثَنْوَى؟".

– أنتما بلائي، ونجاحي أن أُنسيك وجودها.

– وهل بمقدورك أن تنسيني أحلامي بملاقاتها.

– اصبر على بلائك بنسيان غيابها!

أيّ عجين يطحنه قدّار بهذه الجملة؟ سكن مدةً بين إغماضة عينيه وأنفاسه، كأنّه يستمدّ أفكاره من الغيب.

– مهمّتي أن أجعل قلبك معلّقًا بالخلد لا بالفناء.

يُغيظني خشوعه.

– ألم تقل إنني مهوى أفئدة السحرة؟

– وما زلت كذلك.

– أريد مقابلة أيّ منهم ليكشف لي عن وجود ثَنْوَى.

– هم يريدون نزع قلبك لا إعادته إليك!

***

أحيانًا أثق بكلمات قدّار وبادعاءاته.

في الصحن، أمام الكعبة المعظمة، طفنا صامتَيْن حتى أنني شككتُ أن يكون معتمرًا أصلًا، جذبني إلى حجر إسماعيل لأداء ركعتَيْن خاشعتَيْن. وحالما تلاقت عيوننا، أوصاني متوددًا بالتزام الصمت ليكون هو المتحدث بلساني. في ذلك المكان، لم أكن بحاجة إلى لساني لمخاطبة الناس، فارتضيتُ الصمت وأعاد هذا الرجاء في المدينة المنورة عندما وجدنا مكانًا في الروضة الشريفة. وبمجرد وقوفنا لأداء ركعتَيْ تحية المسجد، قارب جسده من جسدي ومال إليّ همسًا: "إن تجمّع حولك نفرٌ من الناس، فأشر نحوي".

قبل ذلك أمضينا أيامًا عدة مستلقين في صحن الكعبة، وفي اليوم الأخير، خرجنا من باب إبراهيم لأمنح لساني حرية الهذر: "لم يحدثنا أحد، فما بال توصياتك معطوبة؟".

– لم أشأ إحداث فوضى ولم أحدّث أحدًا بخبرك.

صمتُّ عن الكلام أيامًا، حتى إذا فتحت فمي، وجدتها فرصة للحديث عن غياب انتظام ما نراه منتظمًا.

– ما تظنّه ساكنًا ويسير وفق نظام يؤكد فضويتك، فلا شيء ساكن ولا شيء منتظم، وكل كائن يحمل الفوضى أينما سار.

صمتُّ لأرى انفعالاته عندما تصنّع الإصغاء، ولم أكن راغبًا إلّا في الحظات سكون لعل كلمة واحدة تهدم أساطيره.

– انظر، الكون يتراءى لنا في انتظامه، بينما في جوهره قائم على الفوضى: مثلًا فوضى خيالاتك، فوضى الكواكب بانفجارها كلّ حين، فوضى أمعائك... فوضى حروب كريات دمك، فوضى تجمع الأطعمة في معدتك، فوضى الحياة والموت في كبدك، فوضى زمنك، فأنت تعيش الماضي والحاضر والمستقبل بمخيلة تذهب إلى كلّ الأزمنة.

أجملت له الفكرة بجملة قصيرة: "الفوضى هو نظام، فلا تجعله خارج نظامك".

فسلم على الهواء الذي يفصلني عنه.

– أنت صحفة الكون وأنا أسير على نور بصيرتك سيدي.

أغاضني بكلمة سيدي:

– إذا كنت سيدك، فالفخاخ التي تنصبها لي تستوجب قطع رأسك.

أظهر وداعة متناهية الخشوع، وتمتم معتذرًا:

– أنا الموكل بك لكي تسير في طريق قدرك!

***

أذكر اليوم البعيد الذي أخفى فيه قدّار ثَنْوَى عن ناظري، وما تكبّدي مغبّة الترحال والغربة إلّا طمعا في أن تُضمد ثَنْوَى ما تساقط منّي. لقد نزفتُ كلّ أوقاتي أبحث عن أيّ أثر يقودني إليها.

كنت أتجرأ على سرقة مفاتنها كلّ ليلة، وعندما غابت، تجرأت على مطارحتها هيامي بكل شيء فيها. إنّه الحلم يعريها دومًا ويهيّئها كرغبة، فكيف تجرأت على الإتيان بأمر نُكر حتى إن كان حلمًا. ولشدّة غضبي، قررت دفن الأحلام؟

– لست عنينًا بل عاشقًا أريدها قلبًا وجسدًا نعارك الكون لنحظى بلحظة حب!

في ذات ليلة، امتقع وجه قدّار لرؤيتي وأنا أختلس النظرات باتجاه مرقد ثَنْوَى، اكتفى برسم ألوان الغضب على وجه.

– قدري أن أجمعكما في مكان واحد وهذا هو الابتلاء. وعليّ التفريق بينكما حتى في الأحلام!

لم أُعلّق على جملته أثناء إحساسي بشرخ خجل يتمدد في خاطري، فغصت بين لجج من المشاعر الدبقة العالقة بالخزي.

أووو... ما بال هذا اللوم لا يفارقني، فكلّما فككتُ عقدة، علقت في أُخرى. إحساس متناقض بين رغبة الجسد ورغبة التسامي، فالأولى فطرة والأُخرى تلقين، تلقين لمجابهة الشيطان، والشيطان لا يجابه مناصريه بل يهبهم كلّ ما تتوق إليه النفس، ويكون مرحبا غير معنف، وكلّ وصايا المجابهة تجنح إلى التعنيف.

ونفسي تعوف كلّ الوصايا.

في الصالة الخلفية لمنزل قطنّا فيه – لا أعرف في أيّ مدينة – اختار لي قدّار غرفة هي الأقرب إلى العتمة، مهيئًا لي مكانًا للعبادة. وحرص على توفير ما أحتاجه بالقرب مني أكلًا وشربًا، لكنه نسي أنّ الاحتياجات الصغيرة قد تكون منزلقا لممارسة عظائم الأمور. بقيتُ أتعبّد في ليل صامت باهت ثقيل الخطوة حتى فترت نفسي، وفتحت لي بابًا لأن أتراخى حتى نزّت رغبة الذهاب لقضاء الحاجة. استجبتُ لنوازعها كنوع من التلذذ، وبين طرقات البيت، أعرفُ تمامًا أين تبيتُ ثَنْوَى، فتعلّقت خطواتي بين رغبتين، وما كنت بحاجة إلى التبصر والتأني، فقد انتصرت لهفتي على كلّ القيم التي تعلمتها. وكلص محترف، تناقلت خطواتي بخفة ورشاقة. كان باب حجرتها مواربا، ولم أحدث أدنى صوت سوى أنني مددت رقبتي، ورأيتها كسماء مطرزة بتوهج النجوم. ومن بين الظل والإضاءة هجست: "يا الله: كيف للجمال أن يُذكرنا ببديع خلقك!".

أهتزُّ دائما حيال تثني مفاصل الأُنثى واكتساء عظامها بلحم رطيب وبريق بشرتها فيبين جريان الحياة في عروقها. اهتممتُ بهذه التفاصيل لاحقا حينما فقدت ثَنْوَى. أتساءل: "ما الذي فعله قدّار بحياتي؟".

وقف على عينَي المتعبدتين في معبد ذلك الجسد الراقد عن فتنته باذخة فتركها تتلهى على أريكة من غير أن يعلم، ولو علم الخلق بهذا الجمال، لتقاتلوا أيهم يموت فداء لسيرٍ في مناكب ذلك الجسد.

كنت أجوب بساتين روعتها قاطفًا كلّ ثمرة تدلت من سهوب خديها أو أثمرت وردًا على شفتيها، أقمت متمهلًا على صدرها الكافر بنعمته. أيّ سيقان ذُكرت شعرًا أو نثرًا تقدر على الإتيان بجملة عن انسياق روعة أنهرها. لا أعتقد أنّ عاشقًا تمكن من وصف هذه الجلالة.

انشغلت بتأمل بدعة خلق الرحمن، فإذا بشيطان ينخزني، فارتجت كلّ مفاصلي فجأة؛ كان حضوره فجيعة تمثل هبوطه كصخرة ضخمة ألقيت في ماء صافٍ جرى بين اللهفة والرغبة، فعكرت أدناه قبل أعلاه.

– لعنك الله يا قدّار.

اهتززت كمكينة، وتصلبت كآلة حديدية، وتصدعت كجدار قديم...

وانسحقت كحبّة بنّ وُضعت في رحى لم تكن رحيمة.

ابتعدنا عن غرفة ثَنْوَى وكلٌّ منّا يحوم خلف كلماته. نظرت إليه وقد استوى على كرسيه قاضمًا سبابته وعلامات الغضب متناثرة على وجهه كحبّات التين الشوكي.

طالتْ لحظات الصمت بيننا. كان ثمّة مصباح يشع فوق رأسه.

– هل تعرف أنّ البشرية تنتظرك بينما أنت تقف متلصصًا على جسد بالٍ؟

أيّ جنون هذا الذي يعترك في رأس هذا المتهيئ؟ هل آمن حقا أنّه ملاك، وأنّ عليه إيصال الوحي بأمانة متناهية؟! وأيّ مهمّة جسيمة اضطلع بها لكي ينتدبني لإيصال الناس إلى سبيل الرشاد.

أنا لا أعرف خبايا نفسه لكنني أجهل ما في أنفسي، وأشتكي من حيرة فاقعة. كم أنا عالق بين حيوات! – لا أقدر على إحصائها – فكل نفس داخلي أكن لها حبًا عظيمًا. وأجد أنفسي ميالة مع الفعل أو القول الذي أحدثه سواء أكان ساميًا أم منحطًا، وفق الحالة التي أنا عليها أو النفس التي تقودني وقتها، فأكون: نبيلًا أو حقيرًا، شجاعًا أو جبانًا، سخيًا أو بخيلًا، شريفًا أو وضيعًا، مقدسًا أو دنسًا، فحلًا أو نعجة.

هذا أنا، وهذا القول ليس على منوال ما يقوله أطباء النفس: ازدواج الشخصية، بل يقينًا إنني أحمل أنفسًا عدة، أنا كونٌ من الأنفس تصل إلى الملايين، فإذا كان الحيوان المنوي صُبّ في رحم ما، فإنّ خلايا تلك الملايين تدخل إلى وجود ذلك الكائن، ولنقل ملايين بعدد خلايا الحيوان المنوي الدافق. فعندما يقول أطباء المناظير إنّ المنتصر حيوان منوي واحد، هم يحكمون على من لقح، نعم، واحد من ملايين لقح، هو قام على المهمّة بدلًا عن البقية، لكنه لم يلغِ وجودهم، بل حملهم معه، وهو ينمو، وهي تنمو، فتكون كلّ تلك الأنفس. حقًا الإنسان كون بذاته!

هذه الفلسفة أو النظرة، التي أرى أنّها ثاقبة، لماذا لا أُطبقها على قذّار، فهو أيضا ملايين من الأنفس؟ لماذا لا أستوعب أنّ نفسا من أنفسه ترى أنّه المصاحب للمهدي المنتظر!

نهض قذّار من كرسيه ليكون أمامي مباشرة متخليًا عن ودّه الدائم.

– أحيانًا لا بدّ من القسوة وأنت في أمانتي إلى أن يُفرج الله الغمّة عن قلبك.

تتحجر الكلمات على لساني في كلّ مواجهة تجمعنا، كنت قادرًا على تسفيه الحلم الذي حمله منذ اقتادني من قريتي وحرمني حياة يُمكن لها أن تلم بعثرتي هذه.

استند على مقعد له لبادة خشنة تمت نجارته وتهيئته بطريقة رديئة، وقد شُد بجلد ماعز بزوائد شاذة، وبقيت مساميره نافرة من الأسفل، ويحتاج المقتعد له وضع وسادة إضافية، ويبدو أن قذّارًا نسى وضع ذلك الكرسي، وأراد الجلوس باسترخاء، فما إن فعل، حتى نهض سريعًا وعلى ملامحه تألم طفيف.

– هوسك بثَنْوَى يؤخر حدوث المعجزة!

أصلح ياقته ليُخلص شعيرات من ذقنه علقت في مكبس الزر الأعلى من ثوبه.

– لم أتوقع أن يأتيني الخذلان من هذا.

وأشار باتجاه قلبي: "الحب يصنع المعجزات الكبرى وليس حب إفراغ الشهوة، فهذا الحبّ يرديك في الحضيض".

صمت ليقرأ ما أحدثته جملته في مشاعري من يقظة، حينئذ كنت أفكر في جدية ما نؤمن به، فأنا وهو على النقيضين. كانت عيناه تتفحصان روزنامة استقرت على طاولة مستديرة تجاورها أطباق أعدّت لأكل لم يجهز بعد.

– يُشير التقويم إلى أنّك بلغت خمسًا وثلاثين عامًا وأمامنا وقت قصير لظهورك بعد كلّ هذا الاختفاء.

أيّ قواعد يُؤسسها هذا المتخيّل؟ لم أشأ تصديع بنيانه وبنياني أيضًا، ففكرة أنني معجزة تُخامرني منذ كنتُ طفلًا، وأرغب في أن أجد من يعتني بهذا الحلم إلى أن يولد، لكن ليس بطريقة قدّار.

أشار مرة أُخرى إلى التقويم.

– تذكّر هذا اليوم، فلن تكون هناك ثَنْوَى كي لا تشغلك عن مهمّتك.

جال في خاطري سؤال متسع الأبواب: كيف أكون أنا الموعود وهو من يوجهني؟

هذا السؤال حملته ضمن التعقيدات التي أعيش فيها، وفي كلّ مرة، أنفر من حياة أجدها تسير في قواعد لا أحبها، وأحيانًا أصرخ في أعمق أعماقي: دعونا في الحب وأيّ طريق نحبه نسير فيه سواء أكان سبيله الغواية أم الهداية.

12

تناوب أصحاب المعاطف الثقيلة الطولية على زيارة القرية، وكانت الجدّة صفية تحوط حفيدها بالدعوات والتسلح بخنجر قصير مدبب النصل، تضعه في حزام دبغ من جلد البقر ارتدته على خاصرتها لتضع فيه سلاحها الحاد ذودًا عن حفيدها، ومنعت من يحاول الاقتراب منه أو رؤية خطوط كفيه، أو مشاهدة التماثيل التي يشكّلها، فدأبت على إلباسه قفازين أسودين من القطيفة، ولجأت إلى تكسير كلّ التماثيل التي جسّمها حفيدها، ولم تتوانَ عن طرد من يأتي مريضا من أجل التبرك بملامسة يده. أمسكت عن إشهار المعجزات التي يأتي بها وحي...د، ولم يعد أمامها سوى التمني لإدخاله في بطنها ليستوفي اكتماله في رحمها.

يوميًا هناك غريب ما يبحث عن بيت ابن القطن.

تولى هبوط الغرباء إلى القرية كالريح، ويوميًا يسقط أحدهم متلبسًا في محاولته لاجتذاب وحي...د إلى الأحراش الموازية أو الشوارع المتفرعة أو التقاطه من عرصة دارهم أو من على بئر استسقاء الأهالي للماء.

كانت ليلة قمرية شديدة الظلمة تشي أنّ البدر في دورة الاكتمال. دورة تعرفها الجدّة صفية أنّ منتصف الشهر سوف يستوفي حفيدها فيها السنوات العشر، وفات عليها استذكار ذلك الغريب الذي هلّ عليها في الليلة التي أُقيمت فيها ثلاث أفراح وكانت راعية لحفيدها عندما نظر إلى كفّي وحي...د، وغادر على وعد العودة عند إكمال حفيدها سنواته العشر.

بعد تلك الليلة جاءت سنة مليئة بمحاولات الاختطاف، وفي كلّ مرة، تستعين الجدّة صفية بأهالي القرية لتخفي حفيدها عن العيون المتربصة به. ولجأت إلى فكرة الانتقال ليلًا للمبيت في أحد بيوت أهالي القرية حتى لا يعرف أحد أين يبيت ابن القطن، وفي بقية النهار، يحوط رجال أشداء ملعب وحي...د وحول بيته.

قدم قدّار مقترحًا لم توافق الجدّة صفية على استكمال شرحه، فقد انتزع فؤادها بذلك الاقتراح:

– يا صفية: قدر حفيدك كالأنبياء عليه مغادرة موطنه خشية ممن سوف يعبثون بمصيره أو يفصدون دمه.

فكان تسفيه مقترح قدّار حاضرًا على لسانها: "ابني ما زال صغيرًا وسوف أحميه بآخر رمق أمتلكه".

أفاقت ذات صباح ولم تجد حفيدها في كلّ القرية.

***

كان صباحًا مرتبكًا مهتزًا بسبب الأقدام المتراكضة في كلّ مكان، ومن لم يخرج لمعرفة أسباب ذلك الاهتزاز، أنهضه صوت حاسر المعتل – الذي لم يعد جهوريًا كما كان في السابق – فاستعان بمكبر ضخم وجال القرية مناديًا: "من يجد ابن القطن، فله عشرة جمال صفر".

وقبل التحفيز والجائزة انصب الأهالي بين الأحراش والجبال المحيطة والأودية المتفرقة والحقول المختالة بسنابلها، والطرق المؤدية إلى خارج القرية، كلّ عين في القرية اتسعت محاجرها لعلها تتلمس أثرًا يقود إلى معرفة من اختطف ابن القطن، خاصة أولئك الذين تعاهدوا على نصرته حتى يخرجه الله على الناس كافة.

نتج عن بحثهم المحموم إلقاء القبض على أيّ غريب وجدوه في طريقهم. كان بحثا عشوائيًا قبل أن ينتظم على يد قدّار: "ألم يكن من الأولى سماع نصيحتي بتغييبه؟".

مضى يومان تم فيها استدعاء قصاصي الأثر والخيالة وأدلة الطرق ومحترفي سباحة البرك والمنجمين. كلّ هؤلاء تصلبت معرفتهم عن الإشارة إلى أيّ احتمالية يُمكن الاستدلال بها إلى أيّ جهة اتخذها الخاطفون سبيلا لهربهم... ولم يستسلم خيري طالع للهزيمة، فقد أمضى أكثر من خمسين عامًا قصاص أثر، ومع صموده وتتبع كلّ أثر، تعلّقت الأسماع على فمه انتظارًا لما سوف يقول: "ابن الطين انزلقت قدماه في إحدى الآبار".

ولم يحظَ ذلك الخبر بالترحيب لدى الجدّة صفية، لكنها حثت الرجال على الوقوف على فوهة كلّ بئر والمناداة، وقبل الغروب مات الرجاء من الوصول إلى وحي...د لكنها وقفت أمام الباحثين ناثرة شعرها: "والله ثم والله، إنّ حفيدي لم يمت؛ من أحياه مضغة، فسوف يُعيده رجلًا".

وتناقل الناس خبر السحرة الذين قدموا إلى القرية وبغيتهم اختطاف ابن الطين، فتقوّل بعض الأهالي أنّ السحرة مسخوه إلى جبل وخبؤوه بين الجبال البعيدة.

جاء اليوم الثالث لغياب ابن القطن صامتًا وخيمًا ينذر بالشؤم، فقد عاد الأهالي إلى منازلهم وجف هلعهم ولم يعد لديهم مقدرة على معاودة البحث.

كان ظاهر يربت على كتفي سلمى ويوصيها بالصبر في حين أن صراختها تخرج ملتاعة: "ليتني أسلمته لقدّار ليخرجه من قرية ظالم أهلها!".

***

غضب أهالي القرية من مقولة سلمى حين وصفتهم بالظالم أهلها، وكاد الغضب أن يتمدد لولا أنّ الجدّة صفية اعتذرت وحملت مقولة سلمى على أنّ الذي تفوه هو القلب المحروق على فلذة كبدها. كانت ظهيرة اليوم الربع قائظة وقد تحمّل حاسر حرارة الجو وسفْي التراب ليصل مبشرًا الجدّة صفية: "لي البشارة؛ استطاع قدّار استعادة حفيدك".

لم تصدق الخبر وترنحت كمن صفع على أذنه ففقد توازنه، وعلى مقربة منها كانت سلمى تهل بالبكاء: "ماذا قلت؟".

– أقول استعاد قدّار ابنك.

انتشر الخبر بين بيوت القرية كانتشار رائحة عطر فواح حملته ريح كانت مهمّتها إحداث دوامة واحدة يكون مركزها فناء بيت ظاهر التعمي. تخلّى الأهالي عن مقيلهم وتدافعوا لرؤية ابن القطن سالمًا.

وكفارس مغوار، جلب النصر من براثن هزيمة ماحقة، ظهر قدّار، يردف ابن القطن خلفه على بغلة منتصبة الهامة شديدة بياض الشعر قوية القوائم والأرداف، مكنّها إرخاء اللجام من سهولة حركة رقبتها، وأخرجت الشحيج متقطعًا.

أمسك حاسر بلجام البغلة، وسارعت الجدّة صفية إلى التقاط حفيدها من خلف قدّار تلثمه في كلّ موقع يصل إليه فمها، وتناوله أبواه، وكلما أجهشت سلمى بالبكاء، ربت على كتفها زوجها: "ألم أقل لك صبرًا فإنّ الله لن يضيعه".

في هذا الانشغال، كانت عينا حُمّد وضامية معلّقتين على حبل الشوق بنظرات منسكبة لتُبلل حافات قلبيهما من ظمأ لذع مهجتَيْهما.

في المساء، كانت رقبة قدّار حافلة بريق أُسرة وحي...د وهي تُذممه على ابنهم أينما حل، وألّا يقطع أخباره عنهم، فاستبشر قدّار خيرًا: "هذا رجل الزمان وسوف يخرجه الله ولو بعد حين".

كانت تلك أهم لحظة انقطع فيها ابن القطن عن أسرته الصغيرة.

لماذا يريد قدّار التفرقة بيني وبين ثَنْوَى، بل يعمل جاهدًا على ذلك.

كرهته منذ تكفلته الجدّة صفية حمايتي وتغييبي عن أعين السحرة والباحثين عن كنوز الأرض، ونصرتي في آخر الزمان.

كنت صغيرًا، لم أُدرك لماذا تخلّت أسرتي عن ابنها الوحيد. الصبغة الدينية لأبي تغلبت على عاطفته الأبوية، وآمن بما أسرّ له قدّار، وأكد لأبي أنّه المنفذ لمشيئة الله، وما هو إلّا وسيلة لإيصالي لتحقق المشيئة الربانية.

خطفني في العاشرة من عمري، ولم أكن أعلم في أيّ البلاد أسكن. غالبًا ما يكون بيته على أطراف أيّ تجمع سكاني، وكلّما ذاع صيته وأشار الناس إليه كوليّ من أولياء الله، انتقلنا إلى جهات الأرض المتسعة. كان يذوب عشقًا في الأماكن غير المأهولة ليقينه أنّ الاختلاط بالناس يُسمم النفس بما تشتهي. وقد آمن بأنّ الوحدة تجعل النفس زاهدة في كلّ شيء.

– الاشتهاء يكسر النفس ويطأ كبرياءك.

في البدء، كانت الأرض الفارغة أو البور هي مقامنا المفضل، وكلّما اشتد عودي، زحف بنا إلى الحاضرة.

لا أُنكر مقدرته البلاغية في جعل السامع له يخضع لسحر كلماته وحججه، وإن كانت واهية على من لديه عقل يتدبر. هو يعرف ويُحدد من يلقي عليه مواعظه، ويجيد التوقيت متى يسرف في سرد أساطيره حتى إذا حاز القبول، ذهب شوطًا بعيدًا في تأكيد معرفته بالمستقبل.

اكتسب المؤيدين حيثما حلّ، وتحولوا إلى أتباع كلّ منهم يستقطب الأقرب فالأقرب، وشروط الانتماء: التصديق إيمانًا بكلّ ما يقوله قدّار والاستعداد لمناصرته بالنفس والمال حينما يطلب النصرة.

في ليلة صحوة المنبت، جمع المؤمنين بدعوته إلى البيت، وأبقاني في صالة داخلية ذات أنوار مختلفة الأشكال والألوان، وتم توزيع قوة إنارتها: عتمة، وتوهجًا مشكلًا امتزاجًا لونيًا تنساب درجات اللون فيه فتُعطي الرأي انبهارًا، وتنعكس على ملابسي بسيلان متموج. وقد ألبسني عمّة ناصعة البياض، وارتديت قطيفة خضراء بياقة مذهبة تتماهى مع وضع شال اختلطت عُقد أطرافه باللونين الأخضر والأبيض، ومرغ جبيني وخدّيّ بدهن العود، وانتعلت خفًّا فضيًا طري الدعسة والملمس.

أجلسني على أريكة فاخرة كانت متوسطة العلو، وقوائمها حفلت بمنمنمات مذهبة واسترخت مؤخرتي على فرش كثيف غزير اللبد.

أدخل المؤمنين صفًا صفًا وفق أسبقية من آمن أولًا. وكان في مقدمة الصفوف الملازمين لنا – أنا وقدّار –أصحاب النصرة، فتقدموا كأول المبايعين، بينما وقف قدّار أمامي خاشعًا، ومعطيًا الإشارة إلي – من طرف خفي – ببسط راحة يدي، واقترب مقبلًا إيّاها، وردد بخشوع: "هذه إشارة أنّه الموعود خروجه في آخر الزمان".

ولم ينسَ تركيز الإضاءة على راحة كفي، وتقافزت عيون المؤمنين دهشة لراحة يد ناصعة البياض ليس فيها أيّ خطوط متعرجة أو مستقيمة، فقط كف يقطع راحتها خط وحيد كأخدود امتلأ بالنور!

وكان بيد قدّار كيس منتفخ، أخرج منه صلصالًا. معجون الألوان يغلب عليه الأدم، وتخيّر من بينها أكثرها مراوحة ليبقى في مواجهتي.

– انسخ ملامحه هذا المتشكك، وانفث فيه لكي يصدق.

كانت لعبتي المفضلة منذ صغري؛ في دقائق، كانت ملامح من يقابلني واضحة التقاسيم كأن صاحبها ينظر إلى نفسه في المرآة، أو أنّه قادر على النطق أو التحدث مع نفسه، وزيادة في الاستقطاب خافتني بحمل كلّ ما أنحته لأيّ شخص من المؤمنين، لأعمد على وضعه أمام كلّ عين تحدق في وجهي، ثم أقرب المنحوت من فمي نافثًا في أذنه، فيختلط هواء نفثي مع جهاز تسجيل شديد الحساسية، فتحدث تمتماتي صوتًا أقرب إلى الكلام، فيصيح قدّار: "نطق تمثالك يا شيخ!".

ويأخذ التأكيدات ممن نطق تمثاله بما سمع من صوت، ويجده فرصة أن يشبع آذان المؤمنين بقسم غليظ: "لو كان المنحوت كاملًا، لرأينا المشايخ الأجلاء وكلّ واحد له نسخة من نفسه، تكلمه وتسر له بأنّها من نفس المهدي!".

ارتفع صوت التكبير حتى كدت أضحك، ولولا أنّه أمرني بألّا تنبس شفتاي، لربما صعقتهم بجملة: هراء كلّ ما تفعلونه!

ومع تصاعد البخور والترنيمات شعرت بدوران مصحوب بغثيان، وربما تنبه قدّار إلى حالتي، فسارع بإلقاء بردته – التي حملها من سنوات – على كتفي وجذبني إلى نصف الصالة داعيًا المؤمنين على التحلق حولي، ومد كلّ منهم يده على رأسي، وأقسموا على نصرتي وإن أزهقت أرواحهم. وبسبب الدوخة، كنت أنا من ستزهق روحه.

***

عشقتها منذ الأزل. جبلية صخرية المنشأ كأنّها زبد تماهى في رقة أنوثتها حتى غدت ماء زلالًا يتصبب من القمة إلى اللقاع.

فتنتها لم تخطر على بال بشر. عذابي معها أنّها لا تعرف مقدار غرقي فيها ولم يتبقَّ مني إلّا لهفة تطفو على كلّ البحار وتغوص في كلّ الرمال وتتسامق مع كلّ علو، وترسب في كلّ عمق.

– كيف لبحر أن يغرقك وينسى تكميم أنفاسك؟

هي تركتني نُفسٌ بلا قلب أو نَفس.

ما زلت أبحث عنها وعن ذلك الأفّاك الذي حوّلني إلى أرجوحة تثبت دعائمها واهتزاز حركتها. مرة أكون في أعالي الأشياء ومرة في أسافلها. صدقت إفكه لأكون على مقربة منها، فإذا به يتحوّل إلى جدار يفصلني عنها، بل يحرث وجودي لأستأصلها، ولن أَمكنه من ذلك.

– في النوم، لا أحد يستطيع سرقة مخيلتك، لذا أبقيت ثَنْوَى في أحلامي، ولن يجرؤ أحد على انتزاعها مني.

كنتُ مميزا فقادني تميزي إلى دراسة الطب، وبعد تدرجي لأربع سنوات، استعرتُ جذوة الجهاد في المجتمع، فسعيت جاهدًا للانتقال إلى كلية الشريعة، أو أن أُكمل حياتي في أرض المعارك.

كان أستاذ طب التشريح يُغريني أن أكون مساعدًا له قبل الوصول إلى سنة الامتياز، وعلمت أنّه مولع بعلاج العقيمات من النساء، ويُمارس ولعه سرًا. كان يتودد إليّ باستلطاف مقزز، ويظهر جانبًا أنثويا كلّما تحرك أو تحدث لكن ميله إلى المثلية منفي بسبب علاقاته الواسعة، فلم يثبت أحد ميل الدكتور إلى المثلية، ويرجح زملاؤه أنّ تصرفاته الأنثوية عائدة إلى أنه الابن الوحيد بين ست بنات هو أصغرهن، حتى أنّ اسمه يميل إلى التأنيث: سناء، أي بسبب التربية الأنثوية التي سيطرت على كامل أسرته.

التحقت مساعدًا للدكتور سناء في معمله الذي شيده على جزء من منزله الخاص، ورضي أن يكون في زاوية مظللة طوال النهار تحت أشجار اللوز الهندي وشجر الموز وشجرة توت وحيدة ناضلت لسنة كاملة لكي تفرد أوراقها وتشب عن الطوق.

كنت مغموسًا ين محاضراتي وبين التجارب المعملية. حالما أُنهي ساعات الدرس أنطلق مباشرة إلى المعمل، وقد حفزني منذ البدء للحصول على تخصص رديف في قسم التحاليل الطبية. وفي المعمل، أوكل لي متابعة حضانات مختلفة الأحجام تحمل بويضات وشرائح وخزعات سليمة وتالفة، والتنبه إلى إبر تحمل بقايا أمصال ما زالت معلّقة بين أنابيب حلزونية، والحرص التام على تجميد سوائل منوية لم تدخل دورات التحليل. وكانت أهم وصاياه إبقاء درجة حرارة المعمل منخفضة، وتلك البرودة الدائمة جعلتني في حالة رشح دائم.

غالبًا يسبقني إلى المعمل وينشغل بصمت مطبق حتى أظنّ أنني أمكث في ذلك الفضاء وحيدًا، وفجأة تشعر أنّه يقتعد رصيفًا للفسقة والفجرة بما يلفظه من قول، وما يأتي به من حركات. لقد راعني بمقدرته على معرفة تفاصيل ما يُحدثه المثليون من رغبة الاستمتاع بما هو شاذ.

– كلّ رغبة ولها مفاتيحها وفلسفتها!

كدت أطبق على أنفاسه حينما حفزني على الاستمناء، لولا أنّه غادر المكان بسرعة فائقة. تشجرت ظنوني كثيرًا حول هذا البروفسور، فاستدراجه المبطن يثير شكوكًا فاقعة، وعلمت فيما بعد أنّ استعانته بطلابه لكون بئر ذكوريته قد جفّ تمامًا، بينما أبحاثه قائمة على نزع وتحوير الفحولة مؤملًا القضاء على العقم جذريًا. ومع الأيام، لم يعد بحاجة أن يحفزني، فقد استمنيت كثيرًا، وكلّ

حالة استمناء حُفظ ماؤها على شريحة داخل دورق أسطواني مليء بتراب صافٍ من الشوائب مع ملاحظة التغيرات الناشئة على كلّ إناء منفردًا، وتسجيل التغيرات خلال الأيام الأولى. يبدو أنني الوحيد الذي استجاب لتحفيزه لدلق حيواني المنوي، وتناول أقراص صنّعها لغرض التجربة، ولم تظهر أيّ أعراض جانبية على فحولتي إيجابًا أو سلبًا، ومع كلّ قرص أبتلعه كان يخبرني صراحة: "ستكون أعظم إنسان في الكون استطاع فتح شفرة كتاب الحياة!".

وذات التقاء، قادني إلى دهاليز مخيلته لأقف على جوهر فكرته القائمة على البحث عن وسيلة تجعل تعادل الحيوانات الذكورية والأنثوية في الإنسان – الفرد – متساوية في العدد والأداء، فيستطيع كلّ منهما أن يلد من نفسه!

هذا الهراء توقفت عن التمدد فيه، إذ إنّ الملوحة والحموضة حالتان تُفسدان الحياة، وكلّما نظرتُ في أحوال البشر، وجدتهم مغمورين بين هاتين الحالتين، فكيف يُمكن نزع أحدهما من الأُخرى لتتعادل خلايا الإخصاب الذاتي.

وإذا كان البرفسور راغبا في مناصرة رغبة الإنجاب، فإنّ العقم الأصلي أو ما تنتهى إليه النساء من عقم الكهولة يُمثل مجرى لإيقاف التكاثر المريع. وبقليل من التأمل، تجد أنّ الحياة برمتها ثغرة في الوجود غير صالحة لتمدد من غير فناء.

وقد أضفت على فكرته حلمي في البحث عن إنتاج سلالة خالصة من كلّ الشوائب من غير أن يحملها رحم يفسد نطف الروح الزكية.

5 = ر

أسماء كثيرة وجدتُ نفسي معلّقًا بها، فأيّ منها أكون الآن؟

استعدت ذكريات نبزتي حالما قال جاري: أنت سُكنى الجنّ.

ثم كفكف رعبه مبقيًا جحوظ عينيه بما يُمكنه من الإحاطة برد فعلي. واطمأن إلى مغادرتي المجلس من غير أن يُصاب بأذى.

نعم، جئت من عالم الأساطير، فأنا خاتم الاسم (وفي علم الأساطير خاتم سليمان) لا يُمحى ولا يزول.

أحمل ذاكرة خصبة تحتوي على كلّ الحكايات التي امتزجت بطين الأرض وفي كلّ مكان نبت كشجرة تُؤمن الريح على بذورها ليبذرها في المشارق والمغارب. كلّ مرة أتذكر حكاية ما عشتها وخرجت منها بكنية ووظيفة وسيرة، فأيّ منها هي حقيقة حياتي؟

ومن أجل التوازن النفسي، ثبّتُّ حكاية مولدي في قرية منسية بين الجبل، كان قدّار أعمدة أسسها وثَنْوَى سقفها، وكنت بحاجة ماسة إلى أن أعود إلى المكان الذي أفرز كلّ الأسماء التي أحملها.

***

قرية غرقت في هاوية سحيقة بين جبال السروات أطبقت عليها بأنياب مدببة كفريسة تم اصطيادها منذ الخليقة الأولى، فبقيت في جوف الكون حجرًا لا يهضم ولا يفنى، قرية حدودها قمم شاهقة تحيط بها من كلّ الجهات لها حد واحد منبسط وممهد ومتسع. هذه الجهة لا تميزها إلّا حين ترفع رأسك عاليًا لتجد بصرك يلتهم سماء متسعة فسيحة تظللك بغمامها معظم أيام السنة، يهوي عليها الليل كطائر كُسرت جناحاه فسقط جثة فقدت التغريد واحتزمت بأنين متسع يتناثر ريشه بين حقولها وبيوتها وأزقتها مذكرًا أهالي القرية أنّه على وشك أن يسبقهم إلى قبرهم الأبدي ذاك!

في تلك الظلمة الممتدة ثمّة سماء متلألئة بنجومها، تجذبك لمصاحبة ليلها، فتتصادق مع النجوم والكواكب البعيدة، وكلّ ليلة لك صديق يأخذك إليه أو تأخذه إليك.

في صغري – وفي هذا المكان – أحببتُ نجمة ساطعة، أجدها تحتل بصري من غير أن أبحث عنها. ويُمكن القول إنّ أهالي قريتنا مجانين النجوم. فلكلّ منهم نجم غائر في السماء يتلألأ متوهجًا

ويغري قاصده بالذهاب إليه ليلًا كي يستودعه حلمًا أو أمنية، وينتظر سنة كاملة، فإن لم تتحقق أمنيته يُهاجر في السماء بحثًا عن نجم يمنحه السعد. ولأنني عشقت الزهرة، قيل أنّها اصطفتني مبكرًا وأودعتني سرها، فتعلّقتُ بها هيامًا. ولم يكن بإمكاني الاحتفاظ بكلّ تلك الغواية من غير افتضاح أمري.

في ليل المدينة، تتلاشى النجوم وتهجرك، وإن نازعك الشوق إليها، فستجدها على حافات سفوح الجبال تنتظرك، وتقودك إلى قلب الظلام كي تستطيع مناجاتها كما تشتهي.

أصابتني غواية النجوم من الطفولة الأولى، استرجعتها حينما أيقنت أنني لا أعرف شيئًا سوى التخليق، فكل الأشياء الميتة أعيد صياغتها في أشكال حية.

استرجعت علاقتي بكوكب الزهرة بعد رحيلي من القرية، وتذكرت غوايتي بالنحت، فلا أجد سوى معشوقتي ثَنْوَى لكي أنحتها من الحجارة ومن الصلصال، ومن البرونز، ومن الرصاص، ملأت عشرات الكراريس راسمًا إياها في جميع أوضاعها وحركاتها.

في ليل تلك القرية، تزورني الزهرة بعد الغروب مباشرة، تجالسني للصباح، وليلًا لها حضور ساطع يمنحني البهجة كلّما أظلم داخلي.

هل كنت طفلًا في تلك الأيام؟

النازل إلى قريتنا – من أعالي الجبال الضخمة – يهوي فؤاده قبل بصره الباحث عن قرية استقرت في قاع سحيق، فتتهاوى أنفسنا خشية الوقوع في جرف لا تظهر له نهاية. كانت سيارة الجيب المثقلة بحمولتها تتهادى في منحدر عبدته السيارات المضطرة إلى الهبوط إلى تلك القرى الغارقة في القاع، قرى تناثرتْ على تعرجات سفوح جبال صماء تغطت طرقه بأشجار داكنة الخضرة، ومنحنيات ناتئة البروز كأنّها أسنان مدببة لكائن أسطوري يبحث عن دم يطيل به عمره.

في هذه القرية ولدتُ (أو تكونت)، وبعد أن فقست من لفافة القطن، حملت الأسماء المتعددة والصفات الشائبة، وإلى الآن، لا أعرف أيًّا منها أكون.

***

علقت بي نبزة الجنّي منذ كنتُ طفلًا.

عمري الآن ألفا عام وثماني عشرة سنة، ولو أهملنا التاريخ الذي ارتضيناه لتسجيل وقائع حياتنا، فسيكون عمري آلاف السنوات لم أكسب من مرورها سوى شعوري بالغبن والنقمة على مصيري

الذي وجدت نفسي معلّقًا به، مصير لا أعرفه ولا يعرفني على كنهه.

حاولتُ أن أجد في كتب الدين أو التاريخ أو الفيزياء أو الرياضيات تفسيرًا أرتاح إليه مما أجد لكن كلّ قراءاتي تُوقفني في نقطة متأرجحة فلا أهتدي إلى يقين يثبط جزعي.

الأسطورة هي المادة الوحيدة القادرة على خلق موازنة نفسية لما أجد، فعوالمها الخصبة تقبل شخصيتي كأحد أبطالها الفاضين لبكارة الواقع الصلد الذي لا يقبل ما أحمله من تناقضات أو تتسع مساماته لأرشح على السطح كمعضلة إنسانية تم إغفالها منذ زمن بعيد.

وجدت الجدّة صفيها نفسها في اختبار صعب لم تكن راغبة في اجتيازه كي لا يتبعثر لقبها كجدّة انتظرت أن تُسمى به منذ ولادة ابنها ظاهر.

كانت تصاب بالتشويش حول حقيقة حفيدها إذا ظهرت عليه علامات الغرابة منذ كان في لفّة القطن. وبعد أن فقس قيل أنّ جنية وضعت ولدها مكان المغضة التي سقطت من رحم سلمى لتتبناه إنسية من الإنس.

كانت الجارات يتهامسن أنّ صفية ربّت جنيًا وادعت أنّه حفيدها، وحدثت مشاجرات لفظية عدّة بينها وبين المتقولات إفكًا كما تصفهن.

كانت سميتها صفية أحمد تساندها في موقفها وتتعاطف مع حرقتها التي تتزايد حيال التقولات المثارة حول وحي...د واستطاعت اقناع الجدّة صفية بخوض تجربة التكحل بدم عيني الذئب كونه خير وسيلة لإبطال مزاعم الجارات على الأقل لكي ترتاح وتطمئن إلى حقيقة حفيدها.

ظلت سميتها تزنر على مسامع الجدّة صفية ترغيبا ودفعا حتى ارتضت خوض التجربة وتوقفت عند كيفية اصطياد ذئب لكي تتكحل بدم عينيه. فانتدبت ابنها محرضة إياه: "إن كان المضغة جنيًا، فعليك ذبح الشك باليقين".

وفي ليلة شتوية شديدة هبوب الريح، قطع ظاهر التعمي ظلمتها ووحشتها متسلحًا ببندقية صيد، ومخترقًا جبل غمرة بحثًا عن ذئب يستطيع إماتة الظنّ المعلّق في رؤوس أهالي القرية بأنّ ولده جنّي. كانت الريح أكثر ضراوة على جسده الملفوف بأغطية ثقيلة مصنوعة من فرو الماعز، وفي ممشاه، تباطأت خطواته للوصول إلى قمة الجبل، والانحدار إلى الخلف حيث يتمكن من الوصول إلى تجمعات فصيلة الذئاب الشرسة. وكلّما ارتقى الجبل، أحسُّ أنّ الريح مثقب ينخر جمجمته، ويسرق وجهه المكشوف، ويبدد تركيزه. وفي تهاديه الحذر بين الصخور الملساء، تذكر رؤيا أفزعته منذ ليلتين سابقتين، إذ رأى ابنه الوليد راسيًا على قمّة جبل غمرة، واطمأن إلى تفسير قدّار حينما قال له: "ابنك سوف يكون سيد الكون".

لم ينتشله من خاطره سوى عواء عميق يتصاعد من الأسفل إلى الأعلى، فنشط للوصول إلى مصدر الصوت، فالتفت بين أشجار تناثرت، وفي تقدمه، أمسك بفرع شجرة العرعر الجامعة لخلايا نحل ساكن، سكونه ذاك كان في حاجة أن يُمس أيّ فرع من الفروع لو قليلًا، ليمنح الفرصة

لتفريق الآلاف من العاملات في الفضاء، وفي تنافرهن، اجتمعوا على لدغ وجه ظاهر وعاونهن على نهش وجهه الريح والليل.

فاستعوى بما يجد من ألم، متبادلًا العواء مع الذئاب المنتشرة في محيط الجبل، واستشعر أنّ شعر جسمه وقف استعدادًا لعراك غير محسوب العواقب مع مجموعة ذئاب تداعت وربضت في نصف دائرة، ولم يكن يحمل مؤهل محارب لتصويب بندقيته. وكأيّ مرعوب أطلق رصاصًا كثيفًا أسقط ما يكفي عن الحاجة من الذئاب، وعندما أفاق من رعبه، تلفع أحدها على عاتقه، وأعاد الاستدارة حول الجبل هابطًا إلى قريته ظافرًا بما طُلب منه، ووقف أمام أمّه ضاحكًا: "عينا هذا الذئب تكفيان لتكحيل عيون كلّ نساء القرية".

تلقت الجدّة صفية جملة ابنها بحبور وانطلقت تضمه.

– الآن نرى ما تقوله عين ذئب.

وفي ضحى ذلك اليوم، اجتمعت نساء ورجال القرية لرؤية ما تفعله الجدّة صفية التي نصبت حفيدها بين والديه داخل قطيفة خضراء، وقلعت عيني الذئب المرصص في خاصرته، وبركت على مطحنة تسحق عينين تضمخت بدمائها سحقًا دقيقًا، ولم يعق سحقها تطاير الدماء، وفي ذهول المشهد، أقسم يوسف دميل أنّه سمع طقطقة أمشاج أوردة العينين المخلوعتين. وتناولت الجدّة صفية ميل المكحلة الذهبي، وغمسته في مخلوط عجينها وتكحلت به. ظلت مغمضة أهدابها، وعندما طلب منها أن تفتح عينيها، صاحت بفرح: "ها هو حفيدي في مكانه!".

وصمتت وقتًا ثم حدقت مليًا في ياسمينة خيري وصاحت بانفعال: "هذه جنّية!".

انثنى الكثير من الحاضرين لالتقاط حصاة وحصب ياسمين التي لم تجد بدًا من الركض نحو بيتها وهي تلعن صفية في كلّ كتاب.

عادت صفية تتبختر بحفيدها داخل المنزل مع أنّها لم تقل الحقيقة، فقد كانت ترى حفيدها يغوص إلى أعماق الأرض وينتفش كديك عمل منقاره على نتف ريش كثيف من بين جناحيه.

وفيما بعد، ألفت الجدّة صفية رؤيته في الليالي المظلمة يتراقص مع كائنات لها حوافر ومخالب وتدار همهمات لا يسمعها إلّا هي، فتصيح بحفيدها: "هل أنت منهم؟".

هـ = 30

حملت ذاكرة طفولتي قصصًا لا تُنسى، وأبعد تلك الذكريات حينما أظل أترصد وميض نجمة الزهرة حتى إذا غفوت شعرتُ أنّ حبالًا متدلية من السماء أمسك بأحدها وأظل أرتقي... أرتقي... أرتقي... وفي نهاية الارتقاء، أجد امرأة ليس كمثلها امرأة، نظل نتناغى إلى ما قبل ظهور قرص الشمس.

منذ تلك الأيام كان قلبي مع كلّ عاشق. أستشعر بهذا حينما كنت أنصت إلى حوارية خالتي ضامية وحُمد، كان يهربان بعشقهما تحت شجرتي الظبر التي يحيط بها أشجار الحماط والتين الشوكي، وزهور الخزامى والجبيزة والخفش. في هذا التشكيل النباتي النادر، تنشط لواعج نفسيهما وتتفتح أزهاير الشوق فيما بينهما.

كنت أرافق أبي إلى المطينة لتقطيع الطين اللازب، حينئذ ربما أثرت غضب والدي عندما تغيبتُ عن جمع الطين، فقد شعرت أنّ خزّان أمعائي على وشك الانبعاج، فأسرعت أتخبأ لإفراغ فضلات بطني عن الأعين، كانت هناك أشجار متشابكة تحمي من يلجأ إليها طلبًا للستر، وبينما كنت أنزل حمولتي الثقيلة سمعت صوت عاشقة تكاد يتفطر قلبها مناجية حبيبًا.

رفعت رأسي متربصًا فرأيت خالتي ضامية معلّقة ذراعيها حول عنق حُمّد: "لا تكون الحياة إلّا بك".

شاع حبهما بين طرقات القرية، وكلما أوشكا على الاقتران، يحدث حادث يمنع اكتمال جمع ذلك الحب في مخدع واحد، ونهضت أساطير السحر لتكسر قلبين، فقد قيل أنّ محسن المردان عاشق لضامية، ولكي يحوّل ماء قلبها إليه عقد لها سحرًا لا تنفك من عقده إلّا بقبوله زوجًا، فتمت تهيئة موعد ليلة الزفاف، وتعرجت خطوط الالتقاء، وقبل اكتمال موعد الزواج، أسرّت ضامية لخالتها صفية عن خشيتها من افتضاح أمرهالأن حُمّد ذهب ببكارتها، ولم تكن صادقة، فقد ضحت بشرفها لتبقى سلعة بائرة في انتظار أن يفتح القدر طريقه المسدود.

قبل زفافها بثلاث ليال اخترقت المحظور وتسللت ليلًا لتقف على رأس حُمّد.

– سوف أقول إنّك سرقت بكارتي فارتحل قبل أن يقطع حبنا كاملًا.

وكلما جاءت سيرة خالتي ضامية على ألسنة النساء، تتنهد جدتي مرددة: "كمد الحب له نيران تفوح من أفواه العشاق".

سمعتها تروي الحكاية لأمي سلمى حينما لعنت ضامية ولعنت سيرتها الأولى وتمنت لو لم تكن أختها.

تصالح جدتي مع عشق ضامية كان أمرًا منكرًا، لم أستوعب هذا التصالح حينذاك إلّا بعد زمن. تضحية خالتي بشرفها أبقتني على مناصرة العشاق، وحين سكنت ثَنْوَى في قلبي فهمت معنى تضحية العشاق.

في أحيان يُصيبني الكدر وأتساءل: كيف لثَنْوَى أن تتركني، أو لا تحبني؟

ثَنْوَى فضت بكارة راحة بالي وتركتني أبحث عمن يرتق فجيعة وحدتي المتسعة.

بزغت ثَنْوَى من بين جبال المدينة كناقة صالح ليس لها مثيل. واستعصت على قبول النكاح بأيّ كائن يدب على رجليه أو يطير بجناحيه.

كان مكتوبًا بزوغها كبركة حلت في هذه الأرض، وطاب لها المقام في قرية استندت على ثلاث حرات، وفتحت الجهة الشمالية لعبور المسافرين وتزويدهم بالأكل والشرب، وامتهن معظم سكانها وفادة المسافرين وتبادل المنافع من بيع وشراء للحصول على الدخل اليومي. فتسابقت الاستراحات لاجتذاب المسافرين بتقديم خدمة متقدمة كطعام فاخر نظيف متعدد الأصناف، وتفنن أصحاب الاستراحات في اختيار الأماكن المتسعة المجددة بأرائك ذات حشوة رطيبة وفرش زاهٍ لتكون الجلسات مريحة وتمكن المسافر من الاسترخاء بارتياح، واجتهد العاملون على تسييخ ليّات الشيش حتى تغدو ذات مجرى نقي وسهل في اجترار الدخان، وأظهر القهوجية مهارة في إتقان المشروبات الساخنة، وتدربوا على إجادة الوجه المنشرح المرحب، وكانت الابتسامة هي الوسيلة الأولى لاجتذاب العابرين.

هذا التباري المحموم جعل الاختيار صعبًا في جودة أيّ الاستراحات أرقى وأطيب؛ كان الجميع في سباق، حتى إذا ظهرت المجذومة ليم، مال ميزان الاختيار إلى مقهى واستراحة القانمي.

المجذومة ليم هي المرأة الوحيدة التي أصيبت بهذا الداء، وعجز الأطباء الشعبيون عن تخفيف سفر المرض إلى وجهها ونخره، ولم تفد مساحيقهم في ترميم تساقط جلدها، كان داء وخيمًا، فقابله الناس بعزلها خارج نطاق العمران، وبقي معها ابنها البكر مطببًا وخادمًا.

وذات حلم رأت فيما يرى النائم أنّ صبية تمسح على وجهها فتشفى، وأسرّت لابنها بتلك الرؤيا، فقطع بها الجبال والوهاد حتى إذا رأت بيت القانمي أشارت إلى ابنها أنّ المكان هو نفسه الذي شاهدته في الحلم، وانهارت طاقتها التي أمسكت بها طوال السفر المجهد، وأمام ضعفها وانكسارها وتساقط قطع دموية من أطرافها ووجها، نفر الناس وتواصوا بالابتعاد عنها.

نياح المجذومة وصل مسامع ثَنْوَى، فنبه شفقتها، ووقفت أمام المجذومة كطفل لا تعرف ما الذي ينبغي فعله، فألقي في روعها الاقتراب والتجاسر على أخذ وجه ليم بين كفيها تربت وترمم الجلد المتساقط، وما إن رفعت يديها، حتى حدثت المعجزة.

جال الابن البار بين القرى يروي القصص عن شفاء أمه، مظهرًا بره واستعداده لتلبية أمرها حتى لو كان في السماء، راويًا سرعة استجابته لاقتفاء أثر حلمها، مبينًا أنّه قد أخذ على نفسه عهدًا

بإيصالها إلى بئر تتلجلج مياهها – طوال السنة – وتغلي حرارتها وتتدفق بأبخرة لها مذاق الكبريت المسال ولم يهتم بإظهار أين تقع تلك البئر!

قبل وصول المجذوبة ليم إلي قرية تقع وسط ثلاث حرات قيل لها أنّ نجمًا غاويًا هبط على حرة مجصصة فتشكل على هيئة أُنثى، ومن يتعرض لشعاع عينيها، يبرأ من أيّ داء يسكنه. بعد شفائها أكملت إشاعة خبر سحر عين ثَنْوَى وما تفعله من أفاعيل. تناقل المسافرون برء داء المجذومة بنظرة فتاة صَفِيَ سواد وبياض محاجرها فأبانت سر الوجود، فتهلل الأهالي وأشرعوا أجسادهم وأدواءهم بحثا عن مس يديها التي تحيل المرض إلى برد وشفاء. فتحولت القرية إلى مرمى للمرضى والمعاقين والمسافرين، وتكوم الجميع انتظارًا لإطلالة صبية لا أحد يعرف سحنتها ولا اسمها لكنّ بركتها حلت في ذلك المكان.

في البدء، لم يكن أحد يعرف مكان تلك الصبية التي قيل عنها ما لم يقل من كرامات، وتعددت الحكايات حتى أشيع أنها تشفى الضرير، والأبكم ولو أبصرت عليلًا، لشفته من أدوائه حتى إن لم يشتكِ، وقيل أنّ سرها كان غائبًا، فكشفته تلك المجذومة ليتوافد إلى القرية خلق من كلّ فج ينسلون طلبًا للعلاج. وأصبحت استراحة القانمي محفل القادمين من الجهات الأربع.

*** وكأن ثَنْوَى حورية هبطت من السماء تحمل خزائن الأرزاق وتصبها في حجر أهالي القرية صبًا. فتدافع الرجال تزاحمًا لخطبتها، وكل قلب يوسوس لنفسه أن تكون ساحرة الجمال تلك وردة تزين فأله وتمكنه من أخذ الحظ العظيم.

*** بين تجمعات المرضى والمعاتيه واختلاط أصواتهم وأناتهم، هطل ليل ثقيل أخفى نجومها، وعلى حين غرة، فلق أبصارهم سقوط شهاب ثاقب هبط على استراحة القانمي، ساعتها قال العارفون منهم إنّه نجم كان يتبع شيطانًا ماردًا أراد إيذاء الصبية المباركة.

في صبيحة تلك الليلة، تفقدوا الأضرار التي يُمكن لها إلحاق الأذى بالاستراحة فلم يجدوا أيّ أثر، وتفقدوا أيّ المسافرين هبط إلى القرية ليلة البارحة فلم يهبط إلّا قدّار وأنصاره.

لم يرق لقدّار الأفعال الوثنية التي يُمارسها الناس أمام مقهى القانمي، فانتدب نفسه وعّاظًا بين جموع المرضى والمسافرين وذوي العاهات. ولبلاغة كلامه وجمال مفرداته وتهدج صوته، اجتذب المتجمهرين، فأصغوا صامتين كأنّ طائرًا سحريًا خطف ألبابهم.

كانت زهوة النفس ترفرف بين جوانح قدّار، وأيقن أنّه المؤتمن على حماية سيد الزمان (المخلص) فنشط لدعوة الناس لتأييده ومناصرته إذا ادلهمت الخطوب. في تلك الرحلة، كان ميممًا المسير نحو المدينة ليجمع المناصرين بعدما جف مؤيدوه في مكة.

واصطحب لفيفا ممن آمنوا بقدرته وتنبؤاته وبشارته، ووجد نفسه في استراحة القائمي يدعو المتبركين بآثار أقدام رسبت في أرض رخوة للكف عن ممارسة الشركيات، وإنزال الخيوط المعقودة أمام الاستراحة. واحتاج إلى ترديد عباراته بين المجتمعين ليقلعوا عن غيّهم الذي هم فيه يعمهون، وأخذته النشوة، وهمّ بطمس آثار قدمين رسبت في المناطق الرخوة. قبل فعلته، وجد مقاومة من ذوي المرضى، وعلم أنّ الآثار هي خطوات الصبية المباركة حينما تعبر بين الأجساد المنهكة ترش عليهم ماء باردًا، وتدعو لهم بالشفاء، فتريّث عما عزم عليه وقصد بيت تلك الصبية.

***

خبّ قدّار حثيثًا ومعه صحبه إلى بيت الصبية. كانت الوجوه مستبشرة هانئة يعتلي جباهها فضول وتسكن الحمية أبدانها، وطرقوا بوابة الصمت بخشوع فيما كان هبوب نسمات لطيفة تعبر المنعطفات الموغلة في اتجاه الشمال، نسمات مرت على القوم ناهبة أرديتهم الخفيفة مانحة إياها فرصة الخفقان كأشرعة أمنت من الانزلاق في موجة متقلبة، وتوقفوا أمام رجل عجوز ضرير اقتعد مصطبة قاتمة اللون وهو يقرأ القرآن محبرًا كما أنزل، بينما كانت النسائم تتمايل بين يديه كأنّها سيمفونية تتراقص على نغم عزف مقطوعة نشوة سبحت في الهواء وتصاعدت نحو السماء.

***

أمر قدّار رجاله بالتريث، وأن يقفوا بعيدًا، وتقدم صامتًا مصغيًا بخشوع حتى إذا أنهى الضرير قراءته، هبّ من جلسته وأخذ يتشمم رائحة المكان.

– من الرجل؟

– عابر سبيل!

ارتعدت مفاصل الرجل الضرير وغارت الكلمات في جوفه، ولم يقدر على إخراج جملة متواصلة سوى سؤال مختصر وظل يتمتم: "أأنت... أنت؟!".

– نعم، أنا... أنا.

– كنت أنتظرك منذ زمن بعيد كي أسلمك الأمانة!

شيء ما حدث وغيّر سحنة الكون!

تغيمت السماء بالغمام، وحلقت أسراب الطيور عائدة، ودنت الجبال بقممها العالية، وتمايلت أغصان شجرة الترنج الفارعة المطلة على الشارع، ورفرفت شتلات الريحان ناثرة عرفها على مدخل البيت، وواصلت النسائم تراقصها، وتهافتت فراشات ذات ألوان خلابة لامتصاص رحيق الورود المنتشرة في فناء البيت الواسع.

كان ثمّة سر يحاك في الغيب.

نهض الرجل الضرير من مصطبته يتلمس الجهات لعله يمسك بجسد قدّار.

– امنحني جبينك لأقبله.

– هوّن عليك.

فتجاذبت أيديهما، كلّ منهما يريد تنفيذ رغبته، ومع الإصرار، أذعن قدّار لمشيئة الضرير الذي وجد الفرصة السانحة أن يقبل كلّ جزء يصل إليه فمه حتى غدا قدّار لوحة للثم القبل، وتجاورا في مشيتهما للدخول إلى صحن الدار.

نادى القانمي على ابنته ثَنْوَى، فأتت على عجل، وتراجعت كخيل جفل من شعرة تمددت في غيل صافٍ نفر من بين مياه الوادي، وفي جفولها لامت أباها: "لم تقل إنّ معك ضيفًا؟".

– هذا من سيُوصلك إلى وعدك. اقتربي!

دهش قدّار لرؤية جمال وسحر ثَنْوَى مسبحًا وفاحصًا رزانة معدن الصبية التي ستكون له المعين في رحلته المباركة، وقد أُلقي في روعة خبر ثَنْوَى عبر حلم عشعش في مخيلته منذ زمن بعيد، وكلما قطع زمنًا، ظلت ثَنْوَى مخضرة في باله.

قرّب القانمي ابنته من صدره وهمس لها: "خُلقتِ من أجل أن تكوني نجمة هداية".

لم تفهم جملة أبيها لكنّ جدّية كلامه ووصيته أن تلحق بخطوات قدّار أينما ذهب جعلتها تُقدس الوصية وتنظر إلى قدّار بعين الرضا.

ساعتئذ، كان قلب قدّار شغوفًا بسؤال ثَنْوَى لعجزها عن مداوة أبيها من ضره بينما تغطي الناس ببركاتها وكراماتها من أجل شفائهم، فأنصت إلى جوابها جيدًا:

"لا أعرف، كلما وضعت يدي على عيني أبي، أبعدها مرتفقًا إلّا أنا!".

تهدّج صوت القانمي ساردًا قصصًا عن حياته التي لم يستقر له فيها مقام، مطاردًا نبوءة غرستها في صدره كاهنة جائلة بين القرى، ففيما كان يتسوق، أمسكت به من بين الجموع، وأصرت على كشف فأله، وكلما رفض، تبعته إلى حيث يمضي في دروب السوق، وبعد إلحاح ارتضى أن تكشف له عن فأله، فحملت حجارتها ونثرتها أمامه، وتضاحكت فتبين سنّان ذهبيان زيّنا مقدمة أسنانها العلوية.

– من صلبك، ستأتي فتاة تكون توأم المخلص.

ومع توالي السنوات ظنّ القانمي أنّه عقيم لكثرة زيجاته، فقد تزوج تسعًا من النساء اللائي لم يلدن له، وفي هذه الأرض الواقعة بين حرات ثلاث، التقى امرأة وهبت نفسها له. في البدء، رفض هبتها، وحينما أسرت له أنّها أمّ توأم المخلص، دخل بها من ليلته، فجاءها المخاض بين جبال المدينة لتهب له ثَنْوَى.

وفي ليلة ولادة ثَنْوَى، حطّ طائر غريب الهيئة له مخالب حادة تعكفت من شدة ضراوتها، وله صياح مزعج وقد ظهر شره من نتفه ريشه، وحشي الطبع، سريع الإطباق، غرس مخالبه في لحم الوليدة هامًّا بالتحليق لولا تدارك القانمي الموقف بسل شفرته وجز عنق ذلك الطائر تاركًا إيّاه يتمرغ بين دمائه، وفي صعوده وهبوطه وقبل أن يلفظ أنفاسه، صفق بجناحيه خاطفًا عيني الغانمي ليحرمه رؤية اكتمال طفولة ثَنْوَى، توأم المخلص.

***

تعلّق القانمي برحال قدّار مقسمًا عليه ألّا يُغادر البيت إلّا باصطحاب ثَنْوَى معه في حلّه وترحاله. تلطف قدّار معتذرًا مع وعد اصطحابها عند العودة، ويمّم وجهه من غير إعلان وجهته، وقد حفّ به المؤمنون والمناصرون لدعوته شاقين المدى بينما كانت أرديتهم البيضاء تُرفرف من نوافذ السيارات على وقع تراشق حبيبات الحصى إلى الخلف.

لم يرق الوعد للقانمي، فحث ابنته على الاستعجال بحمل ما تشاء من حاجاتها، واستئجار سيارة للحاق بركب قدّار، ولأنه لم يعرف الجهة المقصودة، استسلم للانتظار.

***

في صبيحة نهار غارق بذرات غبار، لم يقصد القانمي الذهاب إلى استراحته، فقد وجد في المنام حلمًا يناديه بالتوجه إلى مرعى غنمه المحاذي للمنفذ الوحيد لقريته، فقد رأى غنمة سوداء أنتجت جوادًا أشهب تعلّقت حوافره الخلفية برحمها فكان رغاها استغاثة تتمدد عبر الخلاء المتسع، تناديه باسمه الصريح، فتوكأ على عصاه مجيبًا النداء، رافضًا اصطحاب خادمه الصغير معه.

مضى النهار بغباره عاصفًا محتلًا عيون المرضى المنتشرين حول الاستراحة، وأمضت ثَنْوَى الوقت تطبّب من تستشعر أنّ ماءها البارد سوف يخصب في جسده.

– أيقنوا بالله قبل يقينكم بكرامتي.

وكلّما رشَّت ماءها، أفاقت الأجساد من ضمورها، وتنادوا بها متبركين. شعرت لوهلة أنّ مصابًا ما يجوس المكان، ولم تُحدد أيّ بقعة ينز منه ذلك التوجس، فأقفلت عائدة إلى البيت.

صوت أبيها لازمها في طريقها: "أودعك، فلا تنسي النبوءة".

أصابها مس من فزع، فتلاحقت خطواتها لتجد منزلها قد أخرج رائحة أبيها خارج القرية، وطمر صوته، وأغلق منافذ أنفاسه، وتبرأ من وجوده، وكانت حاجاته من ثياب وفرش وأغطية وعطور تهم بالمغادرة لعلها تمسك بأصحاب يبقونها على أرض البسيطة حية.

ندهت خادمها الصغير: "أين تركت أبي؟".

شعر الصبي بفداحة تخليه عن مصاحبة عمه، فوقف متخشبًا أمام أسئلة ثَنْوَى ولم يزد على ارتباكه سوى الإخبار أنّ سيده منعه من مواصلة السير معه.

في تلك الليلة، خرجت القرية تتقدّمهم ثَنْوَى للبحث عن أبيها، تفزع الظلمة صياحًا عليه. كانت المصابيح متناثرة كالنجوم تتلألأ في صحراء متسعة تومض وتخبو وتهتز وتحيل حبات رمل الخلاء إلى لجين يشع. لجّة الأصوات تتقارب وتبتعد، قُبلتهم صوت ثَنْوَى الملتاع.

أمضوا ليلتين بحثًا عن القانمي، كان بعضهم يعودون لتزويد الباحثين بالطعام والشراب، حتى إذا أغلقت الصحراء وجهها، عادوا خفافًا ينتعلون الوجع على فقيدهم.

***

ثَنْوَى لم تؤمن أنّ أباها خطفه الفراغ، فبقيت مع خادمها الصغير تنقب خلف الحرات المتراصة بعضها فوق بعض، وتمتم بأدعية موصولة ومقطوعة، وصوت ثقيل يخرج من بطن بئر عميق: "عودي إلى البيت وانتظري مرور قدّار".

عادت تحثّ الخطى مستغيثة برجال القرية لإخراج أبيها، وقفوا على فوهة البئر ونادوا به، فاستجاب الصدى، ألقوا حبالهم فاسترخت في باطن الجب، ونشط أحد أفراد القرية وهبط ليرفعه جثة أبقت على عماها صحيحًا من غير أن تغلق محاجرها.

مضت أيام قلائل حتى هبط قدّار على الاستراحة وغادرت قافلته مصطحبًا ثَنْوَى.

***

في كلّ بقعة من الأرض، يجاهد قدّار لحجبي في الأنفاق والسراديب. نفسه الموشوشة تجعل من تصرفاته حياة تستنشق كلّ ما هو معكر، حرمنا بهجة الحياة الطبيعية، كان دورانه حول نفسه مفسدة تأذيت منها. يلزمني الصمت حتى أصبح فمي وخمًا من قلة الكلام، حتى ظننته غدا مرمى لنفايات الصمت.

الآن، وقد ألفتُ رحيله وحضوره، أحسستُ أنني أنفق أيامي لسداد ثمن أوهامه. لم يكن يُغادرني إلّا بعد أهبه بركاتي، وكلّما تمنعت منحه رضاي، التقط أيّ شيء كنت قد التحفت به أو أرتديه جُنة كي لا يصيبه أذى غضبي عليه، ويغيب زمنًا ويعود ليجد سؤالي نابتًا كأنني للتو قلمت شجرته: "وهل خبأت ثَنْوَى في الدهليز؟".

عاد ذات ليلة وأساريره تتقطر بالابتسامات: "علينا أن نصل إلى المدينة قبل حلول المولد النبوي".

وحفزني على الاستعجال لصعود حافلة صغيرة استأجرها من مكتب الصديق رافضًا السفر جوًا كي لا يفوت بركات المسير إلى المدينة.

انطلقتْ رحلتنا في طريق لم تعهد السيارات السير فيها، قاصدين طريق الهجرة. كان البدء من قرية الغولاء سابحين في وادي عسفان ومصطحبين أحد سكان مدينة خليص لمعرفته الأكيدة بالدروب الصحيحة التي سلكها الموكب النبوي. كان السير بمحاذاة الطريق حذو القدة بالقدة. كنتُ لا أعرف فحوى إشاراته عندما يقف على أيّ موقع ليقول: هذا وادي قديد، أو ثية المشلل، أو منازل بني مدلجة. وفي أرض مجصصة يقال لها غدير قم، أنزلني ومنحني دلو ماء لأغتسل ثم وضع يده على صدري، وتمتم بكلمات طويلة حتى إذا ضقت من أنفاسه الملاصقة لأذني اليمنى أبعدته عني، فاستعجل بإيداع آخر تمتماته.

بشق الأنفس، بلغنا وادي العقيق، وترجلنا لنمضي يومين متتاليين قبل تأدية الصلاة في مسجد قباء.

رحلة شاقة مكنتني من تخيل العنت الذي وجده الرسول صلى الله عليه وسلم في عبور كلّ تلك الثنيات صعودًا وهبوطا بين الجبال والأودية. خاطبت قدّار مستدركًا عنت الرحلة: "لو أنّ أحدًا طُلب منه قطع تلك الدروب الوعرة، ما فعل".

وبصلف، نزع من نفسه هدوءها: "ها أنت قد فعلت!".

وقفنا لصلاة الفجر في مسجد قباء، فأحاط بي المصلون، وقد عرفت سمات وجوه عدد منهم حين وضعوا أيديهم على رأسي متعاهدين على نصرتي في وقت سابق، ولم يرفعوا أيديهم عن هامتي إلّا بعد الدعاء لهم بالثبات في النصرة.

هل يرتحل هؤلاء الناس إلى أيّ مكان أصل إليه؟

لم أشأ أن أُعلّق سؤالي على أذني قدّار، كنت في محاولة مجهدة للتركيز في تذكر تراتبية ما يحدث بينما كان قدّار يضع قدميّ على موقع أثره وألّا أحيد عن مخططه قيد أنملة.

أنزلني في بيت متداع في حي السيح لدى رجل ضاق من نفسه، إذ كانت زفراتها تحرق المكان تأففًا وضيقًا. وفي الليلة التالية، أخذ يقبل رأسي ويتبرك بأثر قدمي العابرتين فناء منزله مقسمًا أنّه شُفي مما يجد من ضيق.

كان شبح امرأة يطل على غرفة مبيتي، وينسحب كلمع البرق. ظننت أنّ هواجس الأطياف الزائرة مخيلتي هي التي تجسد ذلك المشهد. في الليلة الثالثة، كان صوتها جليًا: "أما زلت على العهد؟".

ها، فهل هي من يتبعني أيضًا حيث ارتحلت. وقبل استطالة هذه الفرحة، سُحبت سحبًا لغفوة مفاجئة وأنا أمسك بغمزتي وجه ثَنْوَى معاتبًا تغيّبها عني كلّ هذا الوقت. لم يتحرك الزمن بعيدًا لأستيقظ من غفوتي على تربيت يد قدّار: "الآن يرتفع أذان الفجر. توضأ وطهر قلبك من آثام الدنيا".

كانت يداه تسبغان الوضوء على أطرافه، يتبعها بالتهليل والتكبير.

– لا تقف كالصنم، عجّل وانوِ الاعتكاف.

لم يستطع استرجاع مفردة صنم لكن الاعتذار كان يلوح من بين محاجره.

في باحة المسجد النبوي، هلت نسائم رغدة تشق في قلبي زارعة نباتات فرح مخصرة، فاضطربت جوانحي وسرى في أطرافي فيض من خشوع، غمرني ضوء ساطع انصب بين حواجبي لتغدو غرتي كفيلق الصباح. سمعت قدّار يُخافتني ويُلقي على رأسي بردة: "غطّ وجهك!".

جال في ضميري سباب مقذع. كيف لهذا الغبي أن يُطالبني بتغطية وجهي وأنا مقبل للسلام على نور الهدى، وكيف أقف محتجبًا مسلمًا على من أضاءت لمقدمه السماوات والأرض.

أنزلت البردة عن رأسي، ووضعتها على كتفي، وكحيوان مدمن على ممارسة الغباء، سارع لتغطية وجهي.

– لا تنظر إلى عيني أحد قط!

كان يرغب في تغطية النور المشع الذي فلق جبهتي!

15

الأيام تلتهم لياليها كي لا يطول عمر السمار.

هطل حزن مفاجئ على بيت تواضع كثيرًا، وإن كان أعظم بيت في القرى التهامية، إذ ضم عاشقين ألحما حبهما عبر سنوات طويلة وعبرا أشواكًا ظلت مغروسة في قلبيهما وهما سائران في البعد.

هي المرة الثانية التي يهبط وحي...د إلى القرية. دخل إلى جدته صفية فلم يقوَ على رؤية رأسها يجاور ركبتيها، فانحنى يقبل قدميها، فنعمت بخضوعه، ولم ترفع قامته الساجدة، بل استأنست بوضعيته تلك لعل كرامة من كراماته تعيد استواء عمودها الفقري.

سكن بين قدميها حتى إذا امتلأ الرضا منها، تنحنحت وهي تحاول جاهدة رفع رأسها إلى الحد الممكن: "أكان لا بدّ أن يسكننا الفقد الدائم؟"، مشيرة إلى أنّ حضور حفيدها سيكون له ثمن بتناقص أحد أفراد أسرتها.

هلّ وحي...د بعد أن أصرّت الجدّة صفية على الكتابة إليه عبر برقية مختصرة جدًا: "إن كنت عاشقًا، الحق بعاشق".

هذه البرقية القصيرة أملتها على ابنها ظاهر الذي لم يفهم منها شيئًا لكنّه خضع لمشيئتها، وإن كان استنكافًا خَجِلًا سعى في أعماقه، ولم يجرؤ مكاشفة أمّه عمّا قصدت في رسالتها.

وصلت البرقية لوحي...د في اليوم الثاني، فنشط للعودة كما لم ينشط لأيّ رحلة قاده إليها قدّار.

قامت ضامية على تضحية لم يعرف بها أهالي القرية إلّا بعد زمن طويل. لقد عاشت بينهم كخطيئة يزول عنها الدنس. بار حظّها وتأكسدت سيرتها، ولم يعد أحد يطرق باب منزلها طلبًا للاقتران بها، فأمست عينا أبيها تختلسان النظر في الطرقات لعلّ عابر سبيل يبحث عن تحصين فرجه أو من لم يستطع كبح باءته أو من يرغب في تجديد النكاح أو طالبًا لجمال، ليزوجه ضامية. وعندما أقفرت الدروب، أصبح يستولد الاحتمالات لكن يقينه تشبث باحتمال وحيد، هو أنّ ابنته ستمضي بقية الحياة عزباء. ولازمه تأنيب الضمير، فخرج باحثًا عن حُمّد لكي يقبل رأسه ويرضى الاقتران بابنته لكي يموت مطمئنًا إلى أنّ ضامية تستند على حائط. ومع انتشار خبر خطف حُمّد عذريتها، غدا الكل عازفًا عن الاقتران بها حتى أنّ عشق محسن ذوى، وطلقها قبل أن يصل إليها.

وفي أغرب عقد نكاح حدث في القرية والقرى المجاورة، أُقيم حفل زواج في غياب العريس، إذ لم يكن على علم بهذا الزواج، فقد حضر المأذون وكان أبو ضامية وليًا للزوج الغائب ولابنته المتلهفة لملاقاة حُمّد، وأصبح زوج ضامية مضرب الأمثال بين النساء يتنقلونه سرًا وجهرًا: "كزواج ضامية، لا زوج حاضر، ولا جدار قايم".

وبعد شهور عدة ظهر حُمّد القادم من مدينة عرعر حيث اعتزل كلّ شيء إلّا حبه ضامية، فوصلته مهاتفة تزف له خبر زواجه الغيابي، فلم يفكر في شيء سوى العودة كأنّه أتى إلى قدره. لم تتجاوز عودته السنة حتى سقط صريعًا لحمى الوادي المتصدع، ونفق كجواد مل الركض في مضمار الغياب، حتى إذا رغب في الاسترخاء بين أحضان ضامية سقط كجرم ثقيل حتى غاص في الغياب الأبدي.

عدت إلى قريتي بعد زمن الغبار الذي لفني في كلّ مدينة وقرية. كان السؤال عن خالتي ضامية معلّقًا في أهدابي، وأول من التقط سؤالي الجدّة صفية.

– الحب ماكنة لا تتوقف إلّا بالموت، وضامية قلبها أحب.

وأشارت جدتي صفية إلى صدرها حيث كانت تنبض آخر أيامها، فقد غدت قامتها منحنية، فجاور رأسها ركبتيها عند السير.

علمت أنّ خالتي ضامية غدت دنسًا في أذهان أهالي القرية حتى إذا عافها الجميع كان حُمّد يجني انتظاره الطويل، فجمعا حبهما في مخدع واحد. ابتنيا بيتهما خلف الربوة التي كانا يتنجيان فيها بعشقهما، بيت متواضع شُيّد من القصب وأشجار الأثل وجذوع الدوم، وبقيا فيه، ولقد مضى زمن طويل قبل أن يهنآ بحبهما.

رغبت في زيارة الخالة ضامية فاتجهت إلى الحقول الراسخة في طفولتي لكن الواقع خذلني، فالقرية فقدت براءتها، فبحثت عمن يرتق اتساع جنون بعثرتها بين مقتنيات المدينة وماضيها المتداعي بما تبقى من براءة. لم تعد هناك حقول أو ظلمة ليل أو عاشق لنجمة أو شوق لمرتحل غادرها إلى المرافئ البعيدة. لم يعد لها من وجود سوى المسمى قرية، لكنّ حياتها أصبحت تُمثل شارعًا خلفيًا موازيًا لكل المدن الصاخبة.

وقفت على ربوة تجوف أسفلها، وكانت – فيما سبق – خزّانًا لتجمع السيول وتجمع الصبية السابحين والباحثين عن طين. كانت جنة، فإذا بالمكان يغدو قفرًا من كلّ شيء إلّا من الغبار.

غادرت القرية من غير أن أتكحّل برؤية خالتي ضامية. وبقيت رغبة رؤيتها بعدما جبرها الحب. كنت تواقًا لرؤية ماذا فعل اكتمال الحب من نعمة، وأخذت على نفسي عهدًا بأن أعود.

فيلا غارقة في ظلمة الأزقة الخلفية لحي الحمراء، تكللت أسوارها بنباتات الياسمين والنرجس، يفوح عرفها من خارج الفناء، تجاورها أشجار معمرة تدلت ثمارها مغرية العابرين اقتطاف ما يسهل قطفه من مانجو وجوافة وليمون.

أظهرتُ ماهرة فائقة – لا أعرف كيف اكتسبتها – في زراعة نباتات وأزهار متنوعة بدءًا من اختيار التربة الخفيفة القابلة لري المياه، وتكون جيدة التهوية ثم عزق، وتقليب التربة جيدًا لإكسابها دفئًا ملائمًا مع التخلص من الحرارة الصيفية الزائدة، وري البذور صباحًا ووضع سماد محلي، مع معاودة عزق التربة للتخلص من الحشائش الضارّة.

في كلّ صباح، أستيقظ لأجد باقة من الورود المنسقة تجاور وسادتي. كان فعلًا باعثًا للجنون، ليس معي في هذه الفيلا أيّ أحد من الخلق، فقد قادتني قدماي إلى هذا المكان على نحو غير إرادي ولم تكن لدي رغبة في الاستئجار لكنني نطقت بهذه الرغبة على مسامع سمسار أظهر الترحيب الزائد حتى أوصلني إلى يقين أنّه لن يمانع بقائي في هذا النزل حتى لو لم أدفع فلسًا واحدًا.

هل فاضت ذاكرتي بالتخيلات إلى هذا الحدّ؟

شاغلتني باقة الورود الحاضرة في كلّ صباح، ليس لها من تبرير سوى أنّ أحدًا يفعل هذا الفعل ليوصلني إلى الجنون من غير رحمة، فحزمت أمري على الثبات واعتبار ذلك من الدسائس التي يصنعها قدّار حتى وإن مات!

– أشك في موته، فقد فُرط له الزمن كي يكون موجودًا على النقاط الزمنية، يعبث في مخيلتي كيفما شاء.

أشعر أنّ رأسي يكاد ينفجر من تدخلات قرائية تجعل غير الممكن ممكنًا. وفي كلّ مجادلة قرائية، أقوّضُ فكرة بفكرة، ووجدتُ الشيطان حاضرًا كصنّارة علقت في جوهر الأشياء الفانية والمتجددة. تبلى الأحداث والأشكال بينما الشيطان كمادة غازية تنتشر لمواصلة الغواية، فكيف لمخلوق عبور الأزمان ككتلة متكاملة؟ أووه، انعرجتُ إلى فكرة الخلود. لدينا تصور مبتذل عن الشيطان إذ نعتبره كائنًا فرط له الزمن، فإذا كنا نسل آدم، فنحن من طين، بينما الشيطان من نار، فكيف تجري في أوردتنا النار؟ الشيطان ما هو إلّا هوى، فجميع الرغبات المتدنية ما هي إلّا شيطان يغوي ويجسد الوهم حقيقة.

هل مسني الشيطان منذ كنتُ مضغة همت جدتي بقذفها إلى القمامة وكنت هواها ورغبتها فتشبثت بي لأتجسد!

هذا السؤال أسقطه دائمًا، فكلما نبت في رأسي، أسارع إلى فتح القرآن الذي استهديته من إحدى المكتبات لكي أقرأ آيات بعينها يقال أنّها تحرق الشيطان، ولأن الشيطان مجرد هوى يصير كورقة جافة تحرقه بالإقلاع عن وسوسته. ثمّة جنون أعيشه، أهرب من كلّ شيء، ومع ذلك أجد أبي العلاء المعري يلاحقني بأفكاره لعله يريحني من التشعبات المريرة التي أحيا بها.

ذات مساء قررت فقع عينَيْ لكي أرى ما كان يراه المعري ولولا أنّ قدّارًا أمسك بيدي محرضًا: "امتلك رؤيتك ولن تحتاج إلى فقع عينيك".

من ليلتها، تثبت إيماني أنني معجزة وسوف أظهر لا محالة.

***

قبل استيطاني هذه الفيلا الواسعة دأبت على النزول إلى المنتزهات بحثًا عن ثَنْوَى. كانت حاضرة في كلّ النساء، فما من امرأة إلّا وتزينت بجزء من جمال ثَنْوَى.

هذه تشبه ثَنْوَى بعينيها الساحرتين الغارقتين بكحلها.

وهذه تشبه ثَنْوَى بفمها الحارس على لؤلؤ أسنانها.

وهذه تشبه ثَنْوَى بأنفها الشامخ كسيف أشهر نصله منذ الخليقة ليحارب الخضوع.

وهذه تشبه ثَنْوَى بشفتيها الممتلئتين بشهوة حين تتلمظ الهواء في كلّ حين وتزداد شهوانية لتشعل قنديل اللهاث الليلي.

وهذه تشبه ثَنْوَى باستواء جبهتها كفسفورية تراب الأودية المنتظرة للغيث.

وهذه تشبه ثَنْوَى بصدرها الممسك بغيمتين مثقلتين بثمارهما الطافحة.

وهذه تشبه ثَنْوَى بقامتها المنتصبة كرمح لا ينثني كلّما رمي به للمسافات الأبعد.

وهذه تداني بشرة ثَنْوَى كشعاع لاك شجرة موز فتدلت أقناؤها حتى اصفرت.

وهذه تشبه ثَنْوَى بخفة روحها المسكوبة كموال شجي وهي تطارد قهقهاتها.

وهذه تشبه ثَنْوَى وهي تحمل خصرها الضامر الحاسد من مؤخرتها المنعمة في لدانتها، والنافرة للخلف بقصد إغاظة من يتبعها ببصره.

ثَنْوَى هي كلّ النساء... لا لا لا لا. إنّ ثَنْوَى كعبة النساء!

أعشق طلال مداح وكرهه حين يشدو بأغنية "تعلّق قلبي امرأة عربية"، آه ثم آه يا طلال، لقد أشعت أوصاف محبوبتي، أتبعك بلومي وأنت ميت، وإن رغبت في مسامحتك، كان من المفترض تسمية أغنيتك "كعبة النساء"!

وقبل كرهي لك – في هذه الأغنية – استحضرت امرؤ القيس الذي أشاع قبلك فتنة "ثنوى"، فكيف لهذا المجنون تجميع حبيبته من زوايا الأرض كامرأة كاملة الفتنة، هل كان لملكه تمكين لاقتناص أوصاف النساء لينعت محبوبته بهن جميعًا. نعم، هو ملك ضليل، ضليل ليس لفقده الملك بل لفقده حبيبته!

حلت بي فكرة لئيمة أن أجمع ثَنْوَى في تمثال يصرع كلّ من يراه كمدًا... لن أكون الوحيد من يبحث عنها، سوف أشرك رجال العالم ليبحثوا معي عن ثَنْوَى!

قبل انتقالي إلى الفيلا الكائنة في حي الحمراء، كنت أعود يوميًا إلى غرفتي البائسة المرمية على أحد أسطح العمارات المنتشرة على الشارع الرئيسي في حي الصحيفة، أصعد الدرج بنشاط، فأثب السلالم مثنى وثلاث، وفي زاوية مضيئة من غرفتي، اتخذت ركنها اليماني مرسمًا، فأقتعد بين كراريسي وألواني لأرسم ثَنْوَى، أرسم كلّ جزء منفردًا وأعيد تركيب تلك المقاطع في رسمة واحدة، ومع كلّ رسمة أكاد أجن لهفة وشوقًا.

جاءت فكرة جمعها من العلاقات النسائية، فإذا كانت موزعة في النساء، يكون الشيطان قد أبطن إغوائي بنثرها بينهن. الشيطان لا يسير إلّا بمسليات يسيل لها اللعاب، والهوى مصعده الذي يهوي بنا للذة.

الشيطان لعب معي لعبة الثعلب، فنثر قطع الخبز في طريقي لكي أتبع الفتات ليسلمني لفخ سحيق.

في النشوة، لا توجد حالة اختيار وإنما إقدام.

راقت لي فكرة الغواية بجمع تفاصيل ثَنْوَى من كلّ النساء، وفي مدة وجيزة، تعنكبت وامتدت علاقاتي بنساء كثر، صاحبت الكثيرات، وعقدت علاقات حميمة ليس فيها من شرط سوى أن تكون

في المصاحبة جزء من ثَنْوَى، نساء من كلّ لون وعرق وطبع. وأدمنت مصاحبة كلّ امرأة تحمل جزءًا من صفاتها أو خلقها.

طالت مصاحبتي، فاختصرتها في النساء اللاتي يحملن أيّ حرف من اسمها، وتتمدد العلاقة بمن تجمع بين شكلها وأحرف اسمها لعلني أرتوي من ظمئي الروحي قبل الجسدي.

***

ث

بعد علاقة متقطعة، قالت ثمالة ذات مساء: "أنت كالطيف سرعان ما تتبخر. لا يُمكن رهن حياتي بسراب!".

اعتادتْ غيابي وظهوري المفاجئ، ولم تشأ رهن حياتها لطيف كلّما ظنّت أنّها ممسكة به، صُدمت بأنّ يديها فارغتان، ذلك لجزمها أنها مقبضة على ياقة ثوبه.

ارتضتْ الزواج بعاشق تلوّع بها ورضي بها بأيّ سلوك تكون عليه.

***

ن

في إحدى شاليهات أُبْحُر الشمالية، كانت ثمّة فتاة تمخر عباب الأمواج على دباب مائي وقد فرّ شعرها الكستنائي هاربًا مع الريح فطاردته بضحكاتها المتسعة، واعتقلتني كسمكة فاغرة فاهها بغباء، فهِمْتُ بها حتى ظننت أنّها ثَنْوَى متلبسة تلك الفتاة.

أيّ جنون يعترينا حينما ننساق إلى النشوة؟

خلال أسبوع واحد، كنتُ يوميًا أزور صديقي غسّان جستنية وأنتظر أن تطل تلك الفتاة على سطح البحر بدبابها المائي. أمضيتُ ستة أيام كلّ صباح ومساء أرتكز على سقالة امتدت في جوف البحر، وكلما مضى الوقت، لمت تقاعسي من تجنبي اللحاق بها. لم تظهر بتاتًا، كأنّها فقاعة أنهت وجودها قبل أن يرتدّ إليّ طرفي، فقررت الإقلاع عن البحث. وأثناء وداعي صديقي كانت تقف على بعد أمتار تنده عليه: "غسّان ألم أوحشك؟ جئت مع ماما لقضاء الويك إيند".

نجوى الأخت الوحيدة لغسّان. اجتازتْ درجة الماجستير في علم النفس، ولها ثقة منفرجة على ذاتها فلا تقبل أن يحتويها أحد. أدمنتُ زيارة غسّان في منزل ذويه، وأبقيتُ عينَيْ مسمرتين في وجه

نجوى كلّما جاءت الفرصة لظهورها في منزل كَبُرَ فيه كلّ شيء: بناؤه، حديقته، مسبحه، إضاءاته، أشجاره. وكلّما ظهرت، تعمدت نفض أهدابي المرتكزة على محياها كما تهش حشرة هبطت على خديها فجأة.

فكتبت لها رسالة تكشف هيامي بها، فأعادتها من غير فتح ظرفها، أحسست أنها ستسرقني من حبي الرئيسي، فانسحبت لشهرين كاملين، ألتقي بغسان في النوادي والكافيهات. بعد ذلك الانقطاع وجدت رسالة على جوالي: "الذي يعشق لا ينسى مطلقًا".

كانت هي. انكسر اعتدادها وسلّمتني قلبها صافيًا. أظنّ أنني تزوجتها – هكذا أظنّ –. في ليلة شتوية، كنتُ أرقبُ فراغ الشارع من المارة، فرأيت ثَنْوَى تمشط شارعنا الوحيد وتصفر صفيرًا حادًّا لعلّني أتنبه إليها، وفي تنبهي، تموسقتْ على شفتيها جملة: "الذي يعشق لا ينسى مطلقًا".

كيف أغرتني نجوى أنها صاحبة رسالة الجوال؟

هبطتُ السلالم وثبًا فوجدتُ الشارع قفرًا. نسيتُ نجوى في مكانها وهمت في الطرقات، وكلما صادفت فتاة، ظننت أنني قادر على إنشاء علاقة حب، وفي كلّ مرة، أجد ثَنْوَى تناديني بالجملة نفسها: "الذي يعشق لا ينسى أبدًا".

وفي مغامراتي، أدخل في امرأة لأخرج متلبسًا بأُخرى، وذات حلم ظهرت ثَنْوَى في منامي معربدة ضاحكة: "لن تجد مثلي أبدًا".

***

و

في عراكي مع ظنوني، بزغتْ وداد من حي قصي نهشه الفقر والعوز. فتاة غرقت عيناها بالسحر، وتدلّت هيامًا في دنوها لتتمكن من اصطياد رجل يُقيم صلب وحدتها، ويسقي أرضها المجدبة. وبدلًا من التعلّق بضفائر شوقي لها، تعلّقتْ هي بحبال وعودي الطويلة. وفي كلّ مرة نُجفف فيها شراشف رغبتنا، تستحلفني ألّا أتركها، وهي لا تعرف أنني رحّال في محيط ثَنْوَى الذي لا ينتهي. وكلّما أبطأتُ في التجديف إليها، تنأى عنّي في مياه عميقة، فأقسم لها أنني لست مقيمًا في سواها.

تجرأتُ على هجر وداد، وأوغلتُ في ترحالي لعلّني أجد ثَنْوَي في أيّ مكان على ظهر البسيطة.

علمتُ فيما بعد أنّ وداد سقطتْ من نافذة بيتهم وهي تُحاول الإمساك برسالة كتبتُها لها ذات حنين. كان الهواء قد أبقى تلك الرسالة معلّقة قليلًا ثم تهادتْ على مستوى منخفض من الأرض فهوت

وداد ليتدفق دمها على أرض صلدة، بينما ظلّت الرسالة تُباعدها الريح في فضاء الحي البائس فتشيع فضيحة عشقها.

وبقي السؤال حائمًا في شوارع الحي: من هو وحي الذي عشقته وداد؟

***

ى

لم أجد امرأة يبدأ اسمها بألف مقصورة، فأيقنتُ أنني على غير هدى، وأنّ بحثي عنها بين النساء يُعد خيانة، إذ ليس في النساء امرأة تشبهها.

حرف "ى" أكد أن ثَنْوَى هي بصمة وحيدة في الكون ولا يُمكن أن تُجمع من نساء الأرض، فأقلعت عن حماقات تعدد العلاقات النسوية. حدث هذا – يقينًا – بعد زيارة ثَنْوَى إلي في منامي هامسة: "عندما يكون القلب مسرحًا لتقديم أبطال من عشقت، لا داعي أن يصفق الجمهور لأيّ مشهد يؤدى على هذه الخشبة!".

13 = ت

عشتُ في ظلمة الفيلا الواسعة. لم يكن لدى ما أعمله سوى التحديق في الفراغ والتفكير في ثَنْوَى: أين هي الآن.

هل أُلاحق قدّار بلعناتي؟

ارتحلت إلى الجهات الأربع، ووصلت إلى كلّ سهل وجبل وبحر ولم أعثر عليها.

نسيتُ أنني المهدي الموعود.

هذه الفكرة السخيفة نشأت في ذهنية قدّار المريضة ونقلت إليّ العدوى. موعود بماذا؟ نعم، موعود بماذا؟ فليس لي سمات الصالحين ولا أعمل عملهم.

فأيّ شيطان استوطن عقلية قدّار حتى يجول الأرض من أجل إظهاري؟

قلة المناصرين جعلت قدّار يبحث في الخريطة عن جماعة أو دولة ترعى دعوته. فكّر جديًا بالذهاب إلى كربلاء طلبا للنصرة لكن خشيته من تكرار حادثة مقتل الحسين ظلّت تُؤرق منامه. بعد زمن تخلّص من خاطر القتلة الشنيعة التي حصدت أرواح أبناء آل البيت.

وكلّما ضقت ذرعًا بمداراتي عن أعين الناس، تلطّف بغضبي، وأجلسني أمامه: "ظهور زمنك قد حان فقد اقتضت الأسباب والعلل، فكن جلدًا!".

وفي كلّ مرة يوجهني فيها، أتساءل: "إذا كنت أنا المهدي، فكيف له سن طريقي بما لا أطيق، وبما يملأني حنقًا على توجيهاته؟".

كان ينزوي داخل غرفته وثيابه بحثًا عن نصير أو فكرة تحيل ما حوله إلى نصر مؤزر يحقق إيمانه أنّه المرافق والساعي الأمين في تعجيل خروج المهدي المنتظر، وكلما ضاقت به الأرض، استرجع حسرته مرددًا: "لم يحن موعد الظهور".

أخال أنني أعرف تفاصيل ما لا يعرف، وكل حدث أسمع به أو أعبره يفز من ذاكرتي كأنني عشته بجزيئاته الدقيقة.

شاركت في معارك كبيرة وصغيرة في أفغانستان والشيشان والصومال وجابهت الأمريكان في العراق وكنتُ قائدًا للقوات المعارضة في إدلب. ووقفتُ على سر مقتل القذافي والعارف بالدسيسة التي أودتْ بعلي عبد الله صالح، والسر الدفين في كيفية تنحي مبارك. وكنت أحد الفارين مع الدكتور مرسي حين تم إطلاقه من السجن. وأعرف من أتى بجوال الثّريا، وكنت في البحرين ليلة دخول "درع الجزيرة" لإبطال الثورة هناك. ووقفت على مخطط ثورة حنين ومخططيها الفشلة، وانطلقت مع أول شرارة طالبت بتقسيم اليمن والسودان، ووقفت ضد هنية، وكنت حاضرًا في تنازل الأمير محمد بن نايف عن ولاية العهد. كنت موجودًا كحلقة – سابقة ولاحقة – في سلسلة طويلة من الأحداث والمعارك. وأحتاجُ إلى بحر من المداد لأروي تفاصيل ما كان يحدث وما هو حادث الآن وغدًا. وعليّ تطبيق جزأين من الحكمة الإغريقية: أرى، وأسمع، ولا أتكلم.

التبس على نجوى أمري، فلم تجد من وسيلة لتدارك قواها سوى التثبت من اعتلال صحتي العقلية، وأدمنت سماعي لساعات طوال، وبعد كلّ اصغاء تلاطفني:

"أنت مريض، يا حبيبي، اقتنع بهذا لكي تتخلص من كلّ هذه الهواجس".

لم ترَ راحة يدي أبدًا، كنت أسير بقفازين تتعدد ألوانهما، ولم أحدثها أنني ابن القطن، ولا تعرف أنني المهدي المنتظر.

أرادت إقناعي بانفصالي عن الواقع، أخرجت لها يدي من قفازها، جفلت لرؤية غياب خطوط يدي، بعدها أخذت تنصت إلى مقولاتي بعين اليقين.

أخبرتها أنّني لم أرَ وجهي بتاتًا، فأحضرت المرآة وجاورتني. صُعقت عندما رأت نفسها وحيدة على سطح المرآة، وقفزت كملدوغة: "من أنت؟".

– أنا وحي.

***

قدّار جبّ لا قرار له.

بحثت عن ثَنْوَى في كلّ مكان فلم أعثر عليها.

أمسكت بحاسر، ذلك العجوز الأخرق لحق بنا إلى المدينة حاملًا عظامًا هشة وعقلية سيئة الترتيب شحيحة الأثاث، يكذب كعجوز هرم مُسحت ذاكرته إلّا من مناصرة المهدي. تشعر أنّه فاقد الإدراك والحجة، ولا يستطيع أيّ إنسان إقناعه بضعف محاجته في أيّ أمر من الأمور. يُقسم أنّه يتوكأ على

عصا من أبنوس الجنة منحه إيّاها قدّار نظير إيمانه المطلق، والويل لمن أراد تسفيه قسمه بإقناعه أنّه يتوكأ على غصن غليظ قُطع من شجر السرو ليس له من الجمال سوى انغراسه في التربة بأثر واضح.

ولو لا سقم تفكير حاسر، لكان بمقدوره أن يكون شيئًا مذكورًا.

منذ زمن بعيد وهو يجرى خلف مقولات قدّار كأنّها الصراط. شاخ قبل أوانه – هو أصغر سنًا من قدّار –، هذه الكهولة العجلة أضافت إلى نفسه يقينًا بأن قدّار لا يشيخ أبدًا.

كتقلبات الطقس المفاجئة، جاء حاسر في غير موعده. هبط داخل الفيلا من غير مقدمات. لم يكن حاسر من النوع الذي يتراجع عمّا عزم عليه خاصة إذا كانت المهمّة الموكلة إليه تتعلّق بالمقدس، فهو يتشكل من مجاميع الأوامر والقرارات التي يسنها قدار فيحرص على السير عليها كأنها الصراط. وفي خضوعه، يمنح الرائي له شعورًا ناصعًا أنّه لا يبتعد عن كونه عبدًا.

هبط على الفيلا لاهثًا: "أين العارف بالسر المكنون؟".

سأل سؤاله جاثيًا على الأرض، وعندما نهض تعامدت يداه في زاوية قائمة مقدسًا خاشعًا جلال وقوفه بين يدي، ولم يجرؤ على التحديق في وجهي، يبدو أنّه لم يستوِ بنهوضه كاملًا فكاد يتهاوى. أمسكت بترقوته مثبتًا قامته، فسارع إلى تقبيل يدي: "أأنت من يقيم سقوطي؟"؟

وانبرى حامدًا شاكرًا مظهرًا أنّ تثبيتي له كرامة حظي بها دون العالمين. شددت ياقة ثوبه بقبضة غليظة وقد هممت بكسر ما تبقى منتصبًا في مقدمة أسنانه: "أيّ كرامة تتحدث عنها. ثب إلى رشدك".

شعر أنّه يتأرجح في موقف عصيب لم يكن لينتظره، فجثي يقبل الهواء مشتتًا نظراته أسفل قدمي، ومتممًا: "لا عليك، فسرك في قرار مكين. لقد أخبرني قدّار أنك سيد هذا الزمن، وقد بايعته على النصرة".

كدت ألقيه في عربة النفايات المجاور للفيلا عندما حرص على تقبيل آثار قدمي. تمتمته وخشوعه الزائدان مكناني من التريث ومنحته فرصة للتعتعة: "تواعدنا على الاجتماع هنا لإعلان ظهورك".

أمسكتُ بناصيته وفكرت في جز غرته لعله يفهم أنّه توغل في الاستسلام حتى أصبح في منزلة الخروف الذي ينحر لعبادة شيطانية.

ضحايا قدّار ليس لهم عدد، والغريب سهولة إذعانهم لآرائه وقرارته.

كلما تأملت أحوال قدّار، أصل في نهاية المطاف إلى أنّ الكائن مجرد هواء لا يُمسك به ولا يرى، وتجسده بالتشكل الذي يظهر عليه ما هو إلّا حالة من حالة التجمد ويحدث تفاعلًا سريعًا ليتحول إلى حالة غازية، لذلك لا يُمكن لمن يراه الإحاطة بالجهات التي انتشر فيها.

ها هو يواعد الأنصار لاجتماع ونصرة بينما أنا لا أعرف أيّ قدرة أمتاز بها، وليس لديّ سمة الصالحين وليس لدي سلوك تعبدي أداوم عليه، فكيف أكون هاديًا للبشر وأنا غير قادر على هداية نفسي!

تلاقت رغبتنا (أنا وقدّار) في إحداث أمر ما، فأغريته بانقيادي مع حلمه، وأغراني بتمكيني بما لم أحلم به. ذلك الانقياد المتبادل مكنه أن يُحدد التوقيت بين رغبتي ورغبته، وحان الوقت لكي أطيع السير في الموعد المحدد.

ارتضينا أن تكون المسألة مقلوبة تمامًا. ثمّة اعتلال في الانقياد إلى رغبتينا، وهناك سؤال جوهري: كيف لي أن أُطيعه والمفترض أن يُطيعني إطاعة عمياء حتى لو قلت إنّ الماء تراب؟!

في المساء، توافد نفر من المخبَّئين داخل عمائمهم وتقاطروا لتقبيل يدي. وجدتها متعة تُعزز زهوًا طافحًا ملأ كياني، وأطلق نبتة الخيلاء أن تنمو بين أطرافي، فارتضيت لقامتي الانتصاب المجنح، وامتلاك نظرة المترفع عن أتباعه والفاحص مقدار الخضوع التام الممزوج بالحب والاحترام.

يبدو أنّ هامتي اخترقتْ سقف الصالة التي وقفت فيها، وأسبلتُ يدي للثمها ومنح بركتها للقائمين، وكلّما تقدّم أحد الأتباع، رفع يدي إلى مستوى صدره ليُمطر راحة كفّي بالقبل. الشيء الذي استفزني إصرار قدّار على نزع القفاز – الذي ارتديته صغيرًا – موصيًا الأتباع أن يكون التقبيل في راحة كفّي. ولكي أُخضع قدّار لعظمتي، وكسر أنفته، أشرتُ أليه أن يتقدم، وينحني بمستوى ركبتي وأسلمته راحة كفّي ليُمطرها بالقبلات.

ق = 50

العقول المتحررة من التقديس كلماتها تصيبك بالارتجاج فلا تستطيع دفعها إلّا بغمغمة البراءة مما يقال.

– كن جسورًا، تكن لك الحياة.

هذه هي البداية، جعلتني قابلًا لارتياد ما كنت أخشاه.

ذاكرتي كبقية أقراني متخمة بالقصص الديني، وأيّ انبثاق لها سوف تتساقط تاريخًا من المحرمات والأحكام والسير، خزانة متخمة مملوءة بكل ما قيل، عقولنا أقول لم نفحص أيًّا منها سليمًا، نحن مستعدون لإفراغها وملئها من غير أيّ عملية هضم أو فرز أو تصنيف. أدعي أنني الوحيد من يعرف خبايا وأسرار العقلية الحافظة، هذه المعرفة تفيض لا إراديًا، فأعلم ما لا يُعلم وأرى ما لا يُرى، ولديّ ثقة عظيمة أنني من المصطفين.

لا يعني أحد لو قلت إنّ ولادتي معجزة، ولا تمنح المعجزات إلّا للمصطفين، تخلّقت في لفافة القطن، كانت رحيمة دافئة، حملتني خمسة أشهر: "هل خلق الله الأنثى أن تكون دائمًا رحيمة؟".

الإناث في كلّ التصنيفات لهن الرحمة، كنت أشبه بدودة، كائن لا ينبئ أنّه سوف يحمل جسدًا موفور العضلات. كنت قطعة دم متلبدة، مضغة، اجتمع الجميع على أهمية دفنها. لم يكن لي حبل سري وليس هناك خلجة قلب تُجاور قلبي. معلّق في الهواء، ليس هناك سوى رذاذ ماء تمتصه اللفافة، وأُجاهد لارتشاف رحيق ما تمتصه اللفافة. شهور وأنا أجمع الحياة في عروقي. الآن أجزم أنني كنتُ المحظوظ في القذف الأول، ويشوبني الآن اعتقاد أنّ هناك أنفسا كانت تُجاهد مثلي لتصل إلى آخر بوابة من بوابات الظلام، حتى إذا سبقت الجميع انتفضت كصوص مهيض الجناح، أديتُ قفزات مضنية لاجتياز ظلمات بعضها فوق بعض، بزوغي على تلك الهيئة فاجأ جدتي، لكنها لم تأخذها حالة الفجأة، فتماسكت وأدارت فطنتها وأعادتني إلى السائل. قذفت بي إلى الماء، وعندما طفوت أخرجتني لتلقمني ثدي أمّي.

"تخلّق تلك المضغة لا يُمكن له إلّا أن يكون معجزة. وإذا كان كذلك، فأنا المعجزة؟".

كانت سورة يونس هي ملاذي كلّما تأخر حلمي، ويبدو أنني استعجلت ظهور مقدمي قبل أن يحين موعده.

لذلك، كنت كثير الغضب وأخرج مغاضبًا لأيّ نقاش يدور حولي، وأحرص على إغلاظ القول وأغادر من حيني متجهًا – مباشرة – إلى البحر لعل حوتًا يلتقمني!

***

اعتلال مزاجي وسرعة انتقالي من الهدوء إلى الغضب، والإتيان بأفكار تحطم بنية أيّ عقل يجاورني، تحولت إلى معضلة لدى أصدقائي، فأنا كلّ يوم في حال.

الاستفراغ الدائم قلل ثورات غضبي وأتعبني من الاضطجاع على أسرة الكشف في عيادات الأطباء.

صاحبني سليمان إلى صديق له اشتهر بالقراءة على من انهارت نفسيته، هم يقولون مسه جن، فأيّ جنّ هم من لا يجدون مسكنًا إلّا أجسادًا ضيقة مختصرة الفضاء. لماذا لا يقولون مسّه ملك، أخي سليمان التحق بالصحوة مبكرًا فلم يعد لديه إلّا ترديد المقولات السائبة في براري العقول الخاوية. أرضعتني أمّه عندما لم تستطع والدتي منحي ثديها تصديقًا لمزاعم رضية التي أقسمت بإصرار مبالغ فيه أنني جني صغير نبت في قريتنا ليكون حضانة لمن سوف يأتون من بعده.

تساهلت مع أفكار سليمان، ورغبت في مسايرة الناس فيما يخضعون له من انكسارات ورغبة في التخلص من هذا الاستفراغ اليومي. منحني الراقي توصيات عدة مشفوعة ببشارة التخلص مما أجد.

– لا أطيق الاغتسال بالماء البارد ولا رشفه.

إجابتي صدمت الراقي عبد اللطيف القادري، فبعد الانتهاء من رقيته بقراءة كلّ آيات العين والسحر، زودني بقارورتَيْن من الزيت المقري عليه، وأوصاني بالاغتسال بالماء المثلج. كانت عيناه المختلتين في تركيزهما أكثر اضطرابًا من فمه السيال بالكلمات المحفوظة.

– ألم تقرأ آية: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}؟

– بلى، لكنني أنفر من الماء البارد والفاتر أيضًا.

– أنت مسكون بجيش من الجن.

لم أمكث طويلًا وسبقت سليمان في مغادرة مجلس الشيخ عبد اللطيف.

اعتراني عارض لم أجد له تشخيصًا في عيادات الأطباء أو على ألسنة الدجالين، فكلّما شربت، استفرغت، مع ملاحظة أنّ كلّ ماء يجري في حنجرتي أجد له رائحة منفرة، وقبل انسيابه في المريء، أجد نفسي غير قادر على الابتلاع، فأسفكه خارج فمي. قيل أنّ هذه الحالة لا تُصيب إلّا المسحور. لو علم الشيخ عبد اللطيف أنّ سحرة الأرض يبحثون عنّي، ما أجلسني تحت قامته ليقرأ عليّ آيات السحر.

ثمّة سر مكنون يدون على راحة اليدين، وقراء الكفوف يستنبئون مستقبل الإنسان من تعرجات الخطوط وانثنائها طولًا وقصرًا، وراحة يدي تحمل سرًا لم يقف عليه أحد، فأنا أحمل يدين بلا خطوط.

أحيانًا أثق بآراء قدّار: "أنت تحمل معجزتك في راحة يديك".

ولم أفهم إصراره على أن أرتدي قفازًا طوال حياتي وألّا يعرف سرّ راحة يدي أحد من البشر، فتكفي معرفة أهالي قريتي.

عته حاسر مدد إشاعة سر راحة يدي، فأفشى بين الناس خلو يدي من أيّ خط. وكما نقل عن قدّار أنّ أصحاب هذه الأكف هم الموعودون بفتح مغاليق الكون. لم يكن حريصًا على إخفاء معلومته لمن جاءه مستعلمًا، لأنه كان راغبًا في إقناع من حضر للمناصرة أنني الموعود.

عندما بلغت التاسعة من عمري، توافد إلى قريتنا نفر قليل يسألون عن صدق خلو راحتي يديّ من أيّ خط، وفي تلك الليلة، هرب بي قدّار من القرية وخبأني في جحور الأرض وأنفاقها وسراديبها.

– أنت الآن مطارد من كلّ الاتجاهات، فالسحرة يريدوك لتفتح لهم كنوز الأرض، والساسة لتنصبهم على رقاب العباد، والناس يريدوك لتكون المهدي لهم من الضلالة.

كان يعصم على أذني بنصائح لا أجد لها متسعًا من الفهم، أعياه نسياني كلّ ما يتفوه به، وفي ليلة قمرية، اقتعد خارج خيمة نصبت في البرية، وانثنى على مصباح لكتابة آيات قرآنية وأدعية في باطن إناء صيني، وكان مداد ريشته الزعفران والمسك. ظل طوال الليل ينقش بخط دقيق يميل مع استدارة الإناء، وقبل أن تستبين العين الخيط الأبيض من الفجر، خالط كتاباته بماء الورد، وأفرغ محتوياته في حلقي، ولست محتاجًا أن أقسم أنني منذ استقر ماء المحو في بطني عرفت ما لا يُعرف. من حينذاك، امتلكت حافظة قوية تتنقل بين جميع المعارف، كأنني أتلوها وأعيها عن ظهر قلب.

فجأة تحولت إلى مهوى أفئدة السحرة والدجالين، هكذا فهمت بعد أن سلبني قدّار من أحضان أسرتي، لا أعرف تحديدًا ما الذي حدث سوى أنّ أبي أوصاني بالسير على كلمات قدّار مهما كانت

وعورتها. جدتي صفية لعنت ما يقوله قدّار ورفضت تسليمي له في البدء، وفي ليل بهيم، سلّمني أبي لقدر غائم لا صفو فيه.

عمل على تغييبي عن كلّ شيء. كانت أمامي رحلة القبو، رحلة أرضية كأنني أحد الجان ليس له صورة وليس له من عمل سوى انتظار لحظة الظهور المحددة في أجندة قدّار.

لازمتني ثَنْوَى في رحلات كثيرة لكننا لا نمكث معا كسجينين متجاورين في زنزانتين جمعنا الخاطر وتبادل بعض الكلمات، ذلك الثعلب الكريه استطاع تعليق فؤادي بها، وتعمد إظهارها وإخفاءها، عرفت ذلك متأخرًا وعن طريق المصادفة المحضة.

في ليالي الشتاء الطويلة، تتساقط الحكايات كالنجوم التائهة في المجرات البعيدة، ومثل كلّ شيء تائه، لم تجد الحمى من دليل يرشدها إلى الجهة الأصلية سوى جسدي، فمكثت في أوردتي لأيام. بطبيعة شرهة، أكلت كلّ قوة تسندني للنهوض، فبقيت أستجير منها بالهذيان، كان الخادم الصغير – المصحاب لثَنْوَى – يطببني أحيانًا وغالبًا ما تطبنني ثَنْوَى.

دخل علينا قدّار فجأة فاشتاط غضبًا من غير سبب واضح، وجذب ثَنْوَى حين كانت الحمى تصطلي في دمائي.

– أنت لا تعرفين دورك تمامًا.

...–

– ألم أقلك لك أن تُشاغليه من بعد؟

ذلك التصرف كان محل استنكار الخادم الصغير: "لم تفعل الفتاة شيئًا يستجلب الغضب يا سيدي".

– أنت لا تعلم شيئًا.

– صاحبتك لكي أفهم يا سيدي.

أثناء ذلك كان سره يحوم في مخيلته فلم يبح به. الآن بمقدوري استيفاء ما كان يجول في رأسه: عملت على أن تكون ثَنْوَى بصمة في قلب "وحي...د"، فإن تغلب على عشقها، فسوف يكون الموعود، وإلّا فسيكون عاشقًا بليدًا يسهر الليالي يبكي حبًا ليس له واقع. ثَنْوَى هي الغاوية، و"وحي...د" هو الخلاص، فكيف للخلاص الظهور وهو غاوٍ؟

***

في إحدى ليالي هذيان الحُمّى الساعية والطائفة في عروقي، أحسستُ بكتلة بدني ترتفع رويدًا رويدًا نحو الأعلى. وخيل لي أنّ الأرض زجاجة فُرغت من الهواء فتم شفطي وإخراجي من الحيز الضيق إلى السعة، فجلت مع الكواكب البعيدة في زمن لا أقدره. بقيت زمنًا كائنًا جائلًا مع المجرات، وفي إحدى الانفجارات الكونية، استعادت الأرض قوة الجاذبية واستعادت كلّ المخلوقات التي فرت منها إلّا أنا قد فررتُ من جاذبيتها.

"أنا كائن متفلت من مكان إلى آخر".

هزال جسدي يشعرني أنني نواة لكوكب ما زال في طور التشكل، كيف يُمكن الارتهان لواقع ثابت؛ أنا خارج هذا الثبات، في كلّ لحظة لي شأن.

يُمكنك تجميعي واستخلاص كينونتي من الكلمات التي أتفوه بها لكنّ ذلك الأفّاك (قدّار) لم يستوعب السر المكنون، فأدخلني في دهاليز لا أرى فيها إلّا الظلمة بينما صدري يتفتق نورًا.

اختار قدّار الرحيل إلى المدينة المنورة، وأوصاني التزام الصمت طوال الوقت، وإن تحدثت، فلا يخرج لساني لطلب الدنيا. اتخذتُ زاوية من صحن المسجد النبوي مقامًا، فترطبت خشوعًا. غدا قلبي أشرعة تُيمم نحو الآخرة، راغبا في تقبيل صاحب القبر. يوميا أتعلّق بالشبك الذهبي وأذرف دمع الفرقة والضياع. في ذلك الانسكاب الروحاني ثمّة من يلكزني في خاصرتي: "تحرك يا حاج، هو نبي وليس إلهًا!".

كم أكره سدنة المسجد، أُولئك الأجلاف القادمين من الصحاري البعيدة. ثمّة أغا يُواسيني بنظراته منذ اعتكفت، وهذا الرجل يحوطني برقته ورأفته، ويُزوّدني باحتياجاتي من غير أن أسأله. هل كان ممَنْ كُشف عنهم الحجاب؟

في إحدى الليالي، بينما كنت أغطّ في نوم عميق، هزّ جسدي ووضع في جيبي الأعلى منديلًا صرّه بعناية، ودفعني مع وصية مغلظة ألّا أفتح ما خبأه إلّا خارج المسجد. كانت صدمة مربكة لي عندما وجدت ثلاث سجائر يجاورها كبريت: "هل كان يعلم بإدماني على شرب الدخان؟".

منذ اعتكافي لم أخرج خارج المسجد. دمي ملوث بالنيكوتين، وفي كلّ لحظة ينزعني إدماني نزعًا للخروج والبحث عن سيجارة، فأتململ وأتصنع النوم، راضخًا ليقين قدّار الذي أغرق أذاني برذاذ فمه: "أنت معجزة هذا الزمن".

كثيرًا ما أحار بين يقينين: يقني أنني معجزة، ويقين قدّار بأنني معجزة، لكنّ كلّ يقين ينحى منحى المعجزات الزائفة التي لا تستند إلّا على خيالاتنا.

عبرت المسجد متخطيًا رقاب السجّد وقاطعًا صلوات المصلين ومخترقًا نظام القائمين على نظافة الرواق المؤدي إلى الروضة كي أخرج من بوابة أبي بكر الصديق. كنتُ أسير لا ألوي على شيء، وثمّة امتنان يسيل من خاطري لذلك الأغا الذي قدم إلي منفذًا صغيرًا أن أسترخي خارج الحرم.

مددت يدي للاستجداء، لأدخن تسع سجائر من أنواع مختلفة، وعدت داخل الحرم خاليًا من وساوس تعاطي النيكوتين.

بقيت معتكفًا ثلاثة أشهر، وفي كلّ يوم أزداد قربًا من الأغواتي بلال، فقد أوصله الحظ أن يكون أحد خدمة الروضة الشريفة. تنقل خادمًا لأسر شتى من الأتراك والشوام والألبان، وهداه سيّده الأخير للمسجد النبوي كصدقة جارية هو وسلالته. أحب بلال عمله الجديد، وتفانى فيه ليكسب أبناؤه وأحفاده إرثًا عظيمًا بخدمة الحجرة النبوية.

الأغا بلال انضم إلى الأغاوات بعد خضوعه للخصي كمحطة أخيرة لاذ بها كسرًا لسلسلة عبوديته للناس والتفرغ لعبودية الله بعمله.

في عبوديته المتواصلة، أنجب ثلاث أبناء: بنتان وولد، كان فرحًا بابنه رباح وأخذ يعده خليفة له سادنًا للحجرة النبوية ورئيسا للخدم، كان هذا الحلم شاهقًا على عمره المديد الذي أوصله إلى مرتبة "الخبزية"، وتوقف عندها لعل رباح يوصله إلى حلمه ليكون في رتبة شيخ الأغاوات، وكم تمنى أن يكون ناظرًا لأوقافهم والمسؤول عن سير أعمال بقية السدنة.

لكن حال ابنه رباح لن تبتعد كثيرًا عن ظرفاء المدينة المنورة، فكلّ فعل يفعله يتحول إلى سلوى ينعش به تجويف مخيلته.

تشاركت مع رباح في انتظار ما يرسم لنا في الغيب، وكان على رباح أن يكون سيّد السدنة وأن أكون المهدي المنتظر.

***

طالتْ أيام الاعتكاف ولم أكن أعرف ما يُرسم لي من خطوة مقبلة.

عندما تكون العبادة فرضًا إلزاميًا من إنسان يتتبعك ويحصي عثراتك، يتوه اللّب ويبحث القلب عن سلوى خارج مكان العبادة. فترتْ همّتي بين سجود وركوع. لم أكن أعمل شيئًا سوى انتظار قدّار

ليرشدني إلى الخطوة التالية.

وجدت في رباح منفذًا لمعرفة ما يجول خارج جدران المسجد، فبعد صلاة الفجر ننسل إلى الحواري المجاورة، وأتوه معه في أزقة ودكاكين أحياء العنابية والسيح وباب الكومة والعوالي. هناك تشاهد الناس ملتحفين بالحب من غير تنطع. كنّا نذرع الشوارع لا يُشغلنا سوى المحافظة على موعد العودة إلى أماكن اعتكافنا من غير أن يشعر بتغيبنا أحد.

لم يستشعر أحد خروجنا، فأدمنا التوغل في الحواري البعيدة. كان لرباح أصدقاء كثر يتخلى معهم عن رصانة المنصب المؤمل له من أبيه، ففي زقاق الطيار، يخبئ لباس الأغا ويرتدي زي أبناء الشوارع الراكضين إلى مضمار الجوش، ويخلع عنه الكلمات الرصينة مستبدلًا إيّاها بمفردات عارية من كلّ أدب أو حصافة.

كنا نستهدف حارة النخاولة، فهناك مرتع أصدقاء رباح التاركين قلوبهم مسبلة لزائرين ليقاسموهم حبًا بحب. منذ زمن ورباح غارق في قصة حب لم يفضحها إلّا تدلي عنق العاشقة من النافذة الخلفية لمنزلها، فتشبعه بنظرات الإعجاب، فتتوتر عنتريته باحثًا عمن يصرعه ليكتسب حضورًا أبهى في قلب محبوبته.

"... حتى تلك العاشقة السمراء حملت شيئًا من ثَنْوَى".

أدمنّا الوقوف أمام منزل ريحانة ولم يكن لي من فائدة سوى حماية ظهر عاشقين لا يجدان من الدنيا سوى لحظات غائمة يتبادلان فيها مفردات اللهفة. كنتُ أحميهما من تطفل الأعين أو تشويش أيّ وسواس يصل إلى عقل مَنْ يُريد فضح ما تفعله ريحانة خلف باب منزلها.

كان دورًا محببًا، فكل عشق أرويه باهتمامي ومساندتي.

ذات عصرية سقط بيننا شريط لوردة الجزائرية فأسرعنا إلى سيارة رباح المتهالكة، ولم يخرج الشريط من المسجل بعد إدخاله أول مرة، نسمع أغنية "العيون السود" صباح مساء. كنا نعتكف بكلمات الأغنية:

وعملت إيه فينا السنين عملت إيه فرقتنا لا.. غيرتنا لا... ولا دوبت في نا الحنين السنين...

لا الزمان ولا المكان قدروا يخلو حبنا ده يبقى كان... يبقى كان الزمان وبحبك والله بحبك والله والله والله بحبك قد العيون السود احبك وانت عارف... منته عارف قد ايه كتيره وجميله العيون السود في بلدنا يا حبيبي احبك والله بحبك والله والله والله بحبك جرى في فؤادي ولَهٌ عظيم، كأنّ ثَنْوَى تدس شفتيها في صوان أذني وتترنم بتلك الأغنية شوقًا وتذكيرًا بأنّها قريبة مني. وفي ترنم رباح

واهتزاز رأسه والسرحان في أدغال لحن الكلمات، ضحكت منه كثيرًا: "عيونك ليس لها من سواد أو بياض فهما محمرتان على الدوام!".

ولم أتجرأ على خطف جمال دقة تفاصيل ملامحه البرونزية.

***

وجدت قدّارًا يجاورني في اعتكافي، ويهمس في أذني: "صباح الغد سوف نعلن ظهورك أمام الملأ!".

كانت جملته باترة، لم أستبن منها شيئًا سوى أنّني المهدي المنتظر. لم أُدرك يومًا ما سر ثباته على ما يُؤمن به، ولم أره هاويًا إلى قرار سحيق من اليأس. يتبدّل كطقس معظم أوقاته غائم.

نمتُ على قلق، ومع أذان الفجر كانت يداه تلكز كتفي: "هيا انهض! جاء الموعد الذي انتظرته البشرية منذ أكثر من ألف وأربعمئة سنة".

سرنا إلى دورة المياه، وكانت يداه تحتضنان حقيبة صغيرة أفرغها بعد اغتسالي وأشرف على تلبيسي وتعطيري ووقف كخادم يُرشد كلماته من غير إسراف أو تطاول:

"سوف نحيط بك معلنين ظهورك فلا ترتع مما سوف يحدث!".

على بوابة السلام، تجمهر الأنصار حافّين بقدّار، وكان بعضهم لا يعرف من هو المهدي، وإن كانت ثمّة دلائل تشير إلى الفتى الذي تم تقديمه على الصفوف وإخفاء ملامحه خلف مظلة شديدة النصاعة تغطي جبهته وتتمايل خيوط حريرية خضراء على عينيه.

وضعني الأنصار داخل دائرة صغيرة، يتحلق حولي السابقون في البيعة، وتتسع الدوائر ببقية المؤيدين لجعل اختراق الدوائر غير ممكن. تحرك الموكب والكل يدركون ضرورة بزوغ المهدي على الملأ ولو كلفهم الأمر حياتهم.

كان توقيت اقتحام المسجد مع ارتفاع أذان الصلاة. وما إن أنهى المؤذن أذانه، حتى اقترب قدّار كاشفًا ورافعًا المظلّة عمّنْ اختبأ زمنًا طويلًا بينما كانت الدنيا بأسرها تنتظر ظهوره.

تهيّجت أصوات المتجمهرين – الذين جمعهم قدّار عبر سنوات – صائحين بكلمات النصرة دافعين الموكب للدخول إلى المسجد النبوي، وظهر صوت قدّار ضئيلًا أمام لغط المقتحمين بوابة السلام: "سوف تكون مبايعتنا للمهدي داخل الروضة".

كان صوته حاملًا قدرًا كبيرًا من الثقة، فاستطعنا الولوج من باب السلام وقبل أن تمتدّ خطوات الموكب، تخاطفنا العسكر لتفريق التجمع، وانهالت العصيّ على أجساد المنادين بالمبايعة.

كنت هدفًا للعيون المتربصة والمناصرة في آنٍ.

حدثت اشتباكات عدة كان الكل فيها يستهدفون القبض عليّ لأكون تحت حمايتهم أو أكون في قبضتهم. لمحت رباح يحاول جاهدًا انتزاع ذراعي من بين أيدي العسكر، وعندما عجز، صاح بالمناصرين: "خلصوا المهدي من بين أيدي العسكر!".

وكموجة عاتية أطفق رباح يحركها في اتجاهي بالصوت والحمية، كان المكان يضج بالأصوات وتخاطف الأيادي وتبادل الكلمات وتفادي الهراوات وانحشار الأجساد، وضيق استنشاق الهواء؛ كانت معمعة عظيمة لا تعرف أيهما المسيطر على الموقف.

رباح كان القادر على تحديد الزوايا المترهلة من تزاحم وتجمع العسكر. وبزيه الأغواتي، اكتسب ثقة الجند في تحركاته، ومناوشاته، وفي مخاتلة سريعة، استطاع استلالي من بين الأيدي المتنازعة حولي مطمئنًا أحد الجنود أنّه ممسك بتلابيبي، وجذبني خارج دوائر التشابك، وأفلح في إيهام من يُريد القبض عليّ بأنّ المطلوب في أيدٍ أمينة. كان يدفعني باتجاهات مختلفة حتى حانت فرجة تراكضنا منها معًا، وكان الرعب يفتك بلهاثي في محاولة لتتبع ركض رباح، بينما كان صوته يصلني متهكمًا: "من يراك وأنت تحمي عاشقَيْن لن يشك بتاتًا في كونك مهدي العاشقين الذين جار عليهم الزمن".

كنّا نركض بين الشوارع المحيطة بالحرم النبوي، وفي كلّ زاوية نتريث، فينزع عني قطعة من ملابسي الفخمة التي أرتديها حتى ظننته سيُبقيني عاريًا من كلّ شيء!

غبنا في ركضنا ولم نفق إلّا داخل كافتيريا لبيع السندويشات والعصائر. وقفنا متخلصَيْن من زوائد لهاثنا أمام البائع في محاولة لكسر فضوله، وانبرى رباح يستعجله بتجهيز ما نأكل أو نشرب. كان الإعياء قد نال منّي فارتميت على أحد المقاعد ألهثُ بأنفاس متلاحقة كأنني أخرج رئتيّ لتعبّ الهواء عبًّا. وقف العامل الهندي مستفسرًا عمّا نودّ أكله وشربه. أشار رباح إلى جلستي المنكمشة وإسرافي في اللهاث: "أعطِ المهدي المنتظر عصيرًا قبل أن تزهق روحه".

وأطلق ضحكة عميقة ظننت أنّ البشرية مجتمعة قد سمعتها.

***

غاب قدّار بعد أن غيّب ثَنْوَى. قيل أنّه مات بعد عملية استئصال ورم خبيث تغذّى على خلايا مخه، فبدأت الحياة أكثر هدوءًا وأعمق لهفة.

فأين أجد ثَنْوَى؟

كلّ حدث أعبره ثمّة يقين أنني فعلته أو عشته، فأيّ وجود أكون أنا؟

هل أنا كون مستقل بذاته له أُناسه وأماكنه ومناخه وأتعامل مع كلّ هؤلاء بينما هم نفسي أنا؟ أخلق من كلّ خلية كائنًا وأضع له اسمًا وأُبادله القول والفعل؟

هل علاقاتي بنفسي مجموعة من أناس خلقتهم مني، وهذه الكثرة الكاثرة من الناس لا يُمكن لمرآة إظهارهم على سطحها، سطحها المحدد سواء أكان محدبًا أم مقعرًا، وعندما أقف أمامها لا تقدر على جمعي، وكل جزء مني يعجز عن الإحاطة بكلّي!

هذه هي معضلتي، ولو حدّثتَ الآخرين بها، فلن يستوعبوا أزمتي، فهم مني تطاولهم الحيرة كما تعصف بي، فمن يُجيبني أو يُصدقني بأنني مجموعة "أنوات"؟

تفاتحني أحداث كثيرة، ولكلّ حدث نبوءة مستقبلية أستشرفها، لكنني لا أتدارك منع حدوثها أو تخطيها. أيُمكن العيش في المستقبل قبل الوصول إليه؟

طرأت في البال سيرة الرجل الصالح مع النبي موسى، فهل أراد الله منحنا دفقة أن تسافر خيالاتنا أو وجودنا إلى المستقبل، فقصتهما هي التقاء المدرك وغير المدرك، الحاضر والمستقبل في نقطة واحدة، وليس تجاوزًا القول إنّ عالم النبوة يعجز عن مغادرة زمنه بينما هناك كائن يجول في الأزمنة ويعرف أحداثًا سوف تجري في المستقبل وهو قابع في زمننا. تلك القصة تجمع شتاتي وتجعلني رجلًا صالحًا، فأنا هناك وهنا.

***

في هذه الفيلا، لا يُوجد أحد إلّا أنا وأنا. بمعنى أدق: إلّا أنا و"أنوات" أُخرى تسكنني وأسكنها. ملأتُ جدران غرفتي بأنواع وأشكال من المرايا المحدبة والمقعرة والمستوية، كلّها عمياء؛ لم تر أيّ وجه يُحدق بها. نعم، لا تستطيع أيّ مرآة الخروج من زمنها لتكشف زمنًا آخر. هي تُجسد حقيقة في زمنها وتُكذب ما هو خارج نطاقها الزمني. هل استطاعتْ مرآةٌ بعينها تجسيد الهواء؟ فأنا مجموع ذرات أو خلايا تناثرت في "أنوات" كثيرة لا تجمعها إلّا مخيلتي.

ظللت أبحث عن يقين، وكلّ يقين تُؤمن به نفس وتكفر به نفس حتى تُوصلني إلى التمزق، فأيّ وجود أحياه؟

مع ثَنْوَى أتجمع كوحدة واحدة، فهل غيابها تجزئة لذواتي أو ذواتها؟ في غيابها أو تلاشيها، كيف أخلقها لأتماسك بها.

"أنا فوضى لا يحيط بها نظام".

شاهدتُ المواطنة السعودية "صوفيا" كيف مكّنها صانعوها من الدخول إلى الحياة بذكاء صناعي عبر أسلاك وكوابل لفك التشفير عن عالم يُمكن استحضاره من المجرد إلى المعاش. الحياة قائمة على المعادلات وهي معادلات متوفرة في كلّ شيء. أنا معادلة وأيّ مجهول في حياتي له معلوم في الغيب.

هل أستطيع استحضار ثَنْوَى من غير أسلاك وكوابل؟ فأيّ معادلة يُمكن لها تجسيد رغبتي في استحضار هذه المرأة التي جمعتني وفرقتني أيضًا؟

لا مراء عن وجود كيفية لاستحضار الغائب، فكيف لي الوصول إلى تقنين جلب ما هو غائب في أزمنة ومدارات أُخرى. الحياة تغير أرديتها وفق الزمن الذي تعيشه، فهل أستطيع منحها رداء جديدًا بكشف "الأنوات" التي أحيا بها؟

***

الخيال هو الأب الحقيقي لكلّ الموجودات.

آمنتُ بهذا منذ وقت مبكر، وكلّما أجدتُ رسم الكائنات والناس وتشكيلهم على كراريسي، حتى تكاد رسوماتي النطق، فأنتشي وآمرها بالحركة أو السكون. والرسم جزء ضئيل من المتخيل، وعندما تعطي العنان للخيال، فأنت الخالق ساعتئذ، وعلى المخلوقات أن تطيع.

الخيال هو المنحة الإلهية المطلقة التي وهبك إيّاها العاطي كي تكون إلهًا. والفرق بين الحالتين أنّ ألوهية الله عزّ وجل تُحقق طرفَيْ الأول والآخر، بينما منحة ألوهيتنا التي اكتسبناها من الخيال تكون داخل الزمن وليس خارجه. الله خارج زمننا.

إيماني بالخلق أطلق الحواس إلى أبعد مدى يُمكن لها الانطلاق فيه لبرهنة مقدرة الخيال على جلب الغائب ليكون حاضرًا.

كثيرًا ما رسمتُ ثَنْوَى وهي جالسة وقائمة ونائمة، وفي كلّ لوحة تُوشك أن تهمس لي: "أخرجني من هذا البرواز!".

وفي كلّ مرة، أتخيّلُ كيف يُمكن لي إخراجها من مخيلتي وتجسيدها واقعيًا كما هي أنثى طاغية الجمال؟ لو أنّ كلّ خيال تجسد في زمن المتخيل، لارتجّت الأرض ومادت عن خطها المرسوم منذ الأزل، ساعتئذ يكون كلّ متخيل إلهًا يذهب بخلقه إلى حيث يشاء.

"كيف لنا الخروج من واقعنا الرتيب إلى واقع الخيال الذي يمنح العقل معجزة الأمر الإلهي: كن فيكون!".

تعصف بي دوامة الأفكار: أرسب فيها وأطفو، أقيم بها وأنقضها، أثبتها وألغيها، ومع كلّ فكرة أظنّ أنّني بلغتُ الحقيقية أو مكامن معجزتي.

قضيتُ أيامًا أسبحُ في فكرة منحة أو هبة الخيال، فهي صفة من صفات الله، ومنحنا منها الشيء الكثير. الفرق أنّنا لم نترقِ إلى مرحلة تحقيق المتخيّل في حينه.

نحتاج بعض الوقت فقط لتجسيد ما نتخيّله. إذن، لماذا نتقاعس عن الترقي لاستخدام جنون المخيلة من غير فوارق زمنية لننقض واقعنا الرتيب؟!

***

براعتي في تشكيل ما يقع تحت يدي رسمًا أو نحتًا تطابقا مع تشوقي للدخول إلى المتخيّل، وإذا كان الخيال قادرًا على هدم الإدراك بما هو غير مدرك، فهذا يعني أنّه ليس هناك واقع ثابت في كلّ نفطة زمنية توجد فيها مخيلة سوف تنسف ذلك الواقع لندخل في جريان الزمن وانعدام ثبات المكان.

ذُبحت من غياب ثَنْوَى ولم أهتدِ إلى أيّ وسيلة تُوصلني إليها. أعتقدُ أنّني أقتربُ كثيرًا من استحضارها وسوف آتي بها حتى لو خطفها الموت مني.

أيقنت أنني خرجت من بحر الظلمات لكي أضيء الكون بإعلان انتهاء زمن الفقد. ألم يكن ذاك البرفسور يحلم بالقضاء على فكرة العقم؟ أمّا أنا، فسوف أعمدُ إلى سفك دماء الشوق والحنين والفراق، وها هو الله يمنحني معجزة طيّ الزمن!

تعمقتْ فكرة تجسيد ثَنْوَى كمجسم، وأن يكون على هيئة حركية يُمكن منحه طاقة حياة بوسيلة ما.

"لم يخطر في بال قدّار أنّني سأقدم على هذه الفكرة".

أراد قدّار إحداث المعجزة بمفاهيم زمنه، بينما لكلّ زمن معطيات تُثبت حقائق جديدة على أنقاض حقائق تم استهلاكها ولم تعد مثيرة للحياة.

في صبيحة يوم قائض، فاجأني بمقدمه – دائمًا يكون مجيئه مباغتًا –. كنتُ في حديقة الفيلا على وشك الانتهاء من إدخال المجسم الطيني إلى فرن الإحماء الذي أعددته لذلك.

– ما الذي جاء بك يا ثَنْوَى؟

إتقاني في تشكل المجسم أسقط وجودها في مخيلته وثبتها كواقع يشاهده، وإن بقي محتاجًا إلى برهنة. ومن شدّة تصديق وجود ثَنْوَى أمامي، تقدّم قدّار معنفًا ناهرًا المجسم: "قدركِ ألّا تكوني هنا أبدًا!".

واكتسب خطوة إضافية ليهزّ كتف المجسم فامتشع الذراع بين يديه. أحسّ أنّه انفضح أمره. في البدء، ارتاع ودار حول نفسه كالملدوغ، وبدرت منه كلمات بذيئة لم يستطع اللحاق بها وإيقافها قبل اختراق سقف حنجرته، فتمددت بين فكيه غير المتطابقين، واشتاط غضبًا ضاربًا سارية لوح ثبت عليها المجسم الطيني، وفتح فمه عن صرخة عظيمة: "ألا تستوعب أنّك مقبل على أمر جلل بينما قلبك مشغول بإشباع رغباتك الدنيوية؟ متى تعلم أنك خُلقت لشيء عظيم؟".

ودار على زوايا البيت محطمًا أيّ منحوت نحتّه وممزقًا أيّ رسمة تظهر فيها ثَنْوَى، ثم خرج مغضبًا وهو لا يلوي على شيء.

الغريب، كلّما أقمت مجسمًا، ظهر قدّار لتحطيمه. كان عليّ التفكير جديًّا: كيف أجنب تماثيلي غضبه.

و = 40

هبطت على قرية ابتلعتها الجبال وارتكزت على ذكرى بالية داخلي. هبطت كغراب يحمل شارة الموت، فالحزن طائر شؤم يعشعش في البيوت الخربة.

"ما بال الحنين يغدو شفرة للقطع؟".

أحن لتفاصيل حياة غدت مربط انتمائي، كلّ من هم حولي يحملونني كماء، وكل منهم لديه خشية أن أُسكب. أمام الجدّة صفية يلتئم جزء من تمزقي، ألتم كحبيبات تراب سفتها الرياح وكومتها في حضن هذه السيدة. أمامها تنتظم حبّات عقدي. أعود مضغة تحتاج إلى تقطير يديها لأرتشف رذاذ الماء. كنتُ مجموعًا هنا كذرات، فألقاني قدّار ترابًا في مهب الريح، وفي تلك الدروب البعيدة، نهبت كلّ طريق اصطفى نفسًا، وترك بقية النفوس.

في القرية، أستند على حكاية وانتماء، فالحكاية هي الوجود، ومن غيرها تتبعثر كأجزاء كلّ جزء منك يتوق إلى ارتباط بأصل الحكاية لكي يكون له معنى ودلالة.

هي نفس وحيدة أعرف تفاصيلها، وأحتاج زمنا لأتعرف على البقية من أنفسي. أهبطُ إلى هذه القرية للمرة الثانية، فقد بلغني أنّ الخالة ضامية ينوش الجنان عقلها فقدًا على رحيل حبيبها. لم يكن إيابي يُمثل فرحة لمن كانت يداها معفرتين بتراب المقبرة. ولم يكن وجودي ماحيًا حدبة قبر للتو انضم إلى القبور المهاجرة في الغياب منذ سنوات بعيدة. النساء المعزيات تراجعن حيال رفض ضامية استقبالهنّ وتسفيه كلّ من يقول إنّ حبيبها قد مات، فهالوا على سيرتها كالعهد السابق:

حُمّد قتلها حبًا في حياته ومماته.

ضامية علمتني العشق. في الليالي البعيدة، كانت تغني لنجم سهيل وأنا أركض في السماء أبحث عن الزهرة، هي وصلت نجمها وأنا تهت بحثًا عن نجمة.

أحب خالتي ضامية وأحب عشقها، رأيتها كبيت خرب انطوت كلّ أعضائها وهي تذب من يحاول الاقتراب من سريرها، انعطفت لأقبل رأسها فنفرت ودفعتني بقوة: "حُمّد لم يأت بعد، فكيف تجرؤ على دخول بيته في غيبته؟".

كانت الهواجس تملأ رأسي: كيف لي تخفيف دموع هذه الحيبة، فقد بكت حتى جف عقلها.

وجدتُ نفسي أجمع الطين وأفترش السماء بحثًا عن نجم سهيل. سهرت أجمع ضوءه من شتات الأرض. أُجسّد حُمّد كعاشق أضناه البعد وتلهف أن يكون في أحضان حبيبته. وقبل انقشاع الليل حملتُ مجسمي ووضعته أسفل سرير خالتي ضامية. كان تمثالًا متقن التفاصيل والهيئة حتى كادت شفتاه أن تنبس بالشكر لعودته. وكنت أنتظر استيقاظها، وحينما دخلت جدّتي صفية تتلمس الطريق تعثرت بالمجسم، فرفعت رأسها – بالقدر الذي تستطيع – فزعة: "ألم تمت يا حُمّد؟".

وارتفع صوتها لاستدعاء من جاء معها، وبمجرد ذكر اسم حُمّد نهضت خالتي ضامية تحوم حول المجسم وتُقبّله وأشرفت على نقله إلى سريره. بركت على ركبتيها كحمامة سكن روعها من تصويب بندقية أوشكت على أن تذهب بروحها. ولأيام طويلة، بقيت على هيئتها، وكلّ من دخل يعودها تُسارع بتمتمة: "لا تُوقظوا حبيبي فهو نائم".

بعد أن عجزت عن العثور على ثَنْوَى أردت هزيمة الفقد.

نحن كائنات كسالى لا ننطلق مع خيالاتنا العابرة للمستحيل، نرتهن لمقولة: إنّه خيال! أيّ نكون مكذبين لتلك الهبة العظيمة التي نطلق عليها مفردة خيال.

إنّ وجود الخيال في حيّز مكاني من رؤوسنا لهو تأكيد لخروجه من القمقم لينتشر مغطيًا حيّزًا أكبر وأعمق في حياتنا. حتى لو تأخر ذلك الحضور، لا بدّ من لحظة زمنية تتفتق معلنة أنّ الخيال صار واقعًا.

أردت استباق الزمن بمحاربة الفقد.

المجسم الطيني الذي أسقطه قدّار جاورته مجسمات عدة، ومأزقي الذي واجهته أثناء الاستحضار وانبعاث ثَنْوَى كان انتشار روائح خمرية سرعان ما تنتن، وبعد تهشيم مجسم ثَنْوَى وقفت على مراجعات عدة لمعرفة أسباب انبعاث النتن، فظهوره يعنى أنّ ثمّة كائنات حية سرت في أوردة التمثال، ويعني أيضًا أنّ المجسم (الجماد) دبت فيه الروح، والنتن هو تفاعل كائنات حية تخلقت من كائن ميت!

"ثمّة طريق يستوجب طرقه حتى إن لم نره. ثمّة حركة تقودنا إلى ما لا نتوقع".

هذه الجملة صغتها في دفتر ملاحظاتي ولم ترق لي، فأبقيتها للتذكير واستحثاث مخيلتي لفرز وقائع علمية، فما أنا مقدم عليه لا يحفل بالجمل الإنشائية، وإنّما لكشف المستور، والكشف خطوة متقدمة لاجتياز العادي إلى فضاء المدهش.

انكببت على إعادة قراءة ملاحظاتي، وفحص أسباب فشل الخطوات العجلة، ورفض أيّ فكرة أدخلتها في خانة المستحيل.

في كلّ مجسم أُشيّده، أكتشف خللًا ما. قرأتُ حديثًا نبويًا ضعيفًا يُشير إلى أنّ الإنسان يقبر في تربته التي جاء منها. فهل تكون تربتنا التي جئنا منها قادرة على إعادتنا إلى الحياة؟ في علم الخلايا الجذعية، يستنسخ الواحد منّا من أيّ جزئية تنتمي إلى أجسادنا. حتى شعرة واحدة كفيلة بإعادة الخلق، فكيف لا يُمكننا استنساخ الإنسان من مادته الأولية، من تربته التي جاء منها؟

قفز إلى البال الخلق الأول: تراب وماء وزمن حتى يُصبح صلصالًا. وكلّ المجسمات التي أقمت صروحها هي من تربة واحدة، في حين أن الأحادية لا تخلق ما لا يخلقه الله كما خلق آدم. الأحادية فقط لله، بينما التعددية للمخلوقات.

تقافزت الأفكار واستقررتُ على أنّ الوخم المنقلب إلى نتن جاء من التربة العطنة، فانتدبت نفسي للحصول على خمشة تراب من كلّ موقع وصلت إليه ثَنْوَى. حملتُ كيسًا وجبتُ تضاريس الأرض أخمش ترابًا من سطحها وعمقها وطينها وقسوتها وجبالها وسهولها ووحلها وبحرها.

أذكر موقفًا قديمًا لأبي حينما كان يُشكل من الطين أوانيه الفخارية، إذ شدّ أذني برفق: "اعلم أنّ التراب هو الرحم الأول الذي حمَلنا قبل أن تحملنا أرحام أمهاتنا".

وكلّما مضيتُ في الحياة، اكتشفتُ أنّ التراب هو كون ممتلئ بالحياة الأولى. فكما ننظر إلى تفرد نجم، علينا النظر إلى ذرة تراب واحدة نظرة علمية قادرة على إسقاط معرفتك لنفسك. إنّ هذه التربة مليارات من الأشخاص الذين قرضهم الموت ليكونوا مادة لحياة أُخرى. لو كان هناك سبيل لعودة أولئك الموتى، فستضيق بنا الأرض ونصعد إلى بقية الكواكب القريبة أو البعيدة؟

كنتُ حاملًا خليطا من التربة جمعتها متنقلًا بين مواقع مختلفة، فشع ندم في مخيلتي: التربة بشر فنوا وهذه بقاياهم، فكيف لغر أن يدوس على خلق عبروا الأرض في زمن ما؟ كيف لنا الدوس على من كان ملكًا ولا نعير ذلك الماضي اهتمامًا.

طرأ على البال تشييع جنازة بكري غفار حين تقافز أترابي داخل المقبرة يشدنا المنظر المهيب، وكانت عقولنا الرخوة لا تستوعب أنّ كائنًا كان قبل قليل أميرًا فإذا به ينهار كجدار من طين، وتبتلعه حفرة ضيقة مظلمة. كان ذلك التشييع أول جنازة أشهد فيها التهام الأرض للحياة. لم أكن راغبًا في تضييع ذلك الاكتشاف المرعب، اكتشاف أنّ التراب يلتهمنا كما يلتهم أيّ مخلوق على سطح البسيطة. كنتُ أُزاحم المشيعين دافعا جسدي الصغير لاختراق تلاحمهم فوق فوهة القبر. شعرتُ بحنق عظيم لمن هم أكبر منّي، فكلّ كبير قادر على تركك في جهلك إلى أن تمنحك الحياة تجربة الكبار. حينما سحبوا جثمان بكري غفار إلى جوف القبر – وكانت زاوية الأبصار مغلقة – قفزتُ إلى قبر مقابل لأتمكن من الرؤية بوضوح. كانت عيناي تحدّقان في جثمان لا يمتك أيّ مقدرة على التوجيه أو الرفض، فجذبني العباس الحسيني ساخطًا على وقوفي على ربوة القبر المقابل:

– التراب أناس سبقونا فلا تدعس عظامهم.

...–

– هؤلاء أناس سيخرجون ذات يوم من هنا فلا تجعل لأحدهم سبيلًا لشكوى أنك أهنته وتجد العقاب على فعلتك هذه!

كبرت فوجدت جملة تقال عن الأرض من غير سبر أغوارها: منها خُلقنا ومنها نعود.

وفي عمر تالٍ – في درس الأحياء – وقف المدرس المصري الصعيدي جلال حميدة مبجلًا التراب. كان مصرًا على أن نكون في حالة إصغاء وهو يبحث في عقولنا عن مأوى لكلماته: "التراب يحمل بذرة الكون الأول، ومن الأزل يهضم القامات ليُخبئها في جوفه. استطاع هضم كلّ المخلوقات وما زال وفيًا لعمله".

وقف عند الجملة منبهًا الطلاب بها ومستدركًا إعادة من كان في شرود عن شرحه، لم يكن يعنينا كلامه فنمنحه عيوننا المتربصة على الوقت لكي ننفر في فضاء فناء المدرسة. ربما استوعب شرودنا لكنه أراد إفراغ جعبته من الكلام الذي حفظه عن ظهر قلب منذ تخرجه في كلية العلوم بأسوان. استرجع انتصاب قامته واختار وجهي أن يكون مرتكزًا لشرح الدرس.

– يتركب التراب من عناصر وبقايا حيوان ونبات وإنسان، وكلّ شيء كان حاضرًا في زمن ما وقرضه التراب سوف يعود في زمن آخر. الرمل أداة تحلل لجميع الكائنات لمداراتها، فالتحلل لا يعني الفناء وإنّما الخلق. إنّ التراب أمين على خاصية التجدد والعودة، عودة المخلوقات.

تلقى سؤالًا من أحد الطلاب الذين يغضبونك بأسئلة حمقاء تأتي قبل انطلاق جرس الفسحة: "كيف لهذا التراب التجدد؟".

– ألم تسمع حقيقة أننا خلقنا من تراب وسوف نعود إلى التراب ونبعث من تراب؟

انتهت الحصة وأغلبنا لم نستوعب تغزل الأستاذ جلال بالتراب. وفي مغامرة شغب، صاح صالح فدعق بمدرسه المصري: "يا تراب".

فكانت العقوبة المشددة التي تلقاها صالح كفيلة بالإيمان أنّ التراب قادر أيضًا على سفك دمك بعد نزع جلد راحة يديك إذا استخدمته كلفظة تحقير.

ملاحظة: نسّقت هذا الجزء – وأجزاء أُخرى – بهذه الصياغة، فقد شاركت أنفسي في الحديث عن التراب، وقد بذلت "الأنوات" التي تسكنني نزقًا ومجونًا أثناء حديثها. لو أنني تراخيت وكتبت كلّ ما حدث، ما فُهم شيء مما قيل هنا وهناك.

هـ = 30

أيقنتُ أنّ ثمّة خطأ أحدثته في المجسمات التي أنشأتها، وفي كلّ مرة، أراجع الخطوات التي سلكتها بعلّني أقف على الخلل المانع لتجسيد تَنْوَى حيّة رطبة.

"الماء سر الوجود".

في كلّ خطوات التجسيد كان الماء حاضرًا. قلّبت المسألة كثيرًا، وفي كلّ مرة، يعتريني الفشل، فأعياني فهمي عن الوصول إلى أيّ مسبب. ومع ذاك، ظلت فكرة الخلق قائمة. ففكرة التعاون مع الخيال عما يُمكن استحضاره تفيض ولا يُمكن لها التوقف.

كانت وصايا قدّار مشددة ألّا أخرج من مكاني مهما دعت الظروف إلى ذلك. وفي سفراته الخارجية، يغيب عني هاجس التوجس، وتسترخي أطرافي جميعها، وتنشط ملكاتي المخبئة.

وسط الحي كانت الفيلا التي أقطنها أشبه بالخرائب التي تقطنها البوم فتقضي سحابة النهار منتظرة حلول الظلام.

"الانتظار مثقب نفايات لجمع الأعصاب التالفة".

لا شيء يتحرك خلف الأسوار الداكنة. فيلا منحنية كظهر كهلة ملّت الأفراح واستقبلت أيام شؤمها. على الجانب الجنوبي المعاكس لمدخل الباب الرئيسي، يُلقي بعض الجيران قمامات رخوة داخل أكياس بلاستيكية سميكة سرعان ما تنبشها القطط والكلاب لتحوم في الأرجاء روائح لا تطاق.

لا أحد يعرفني هنا، إذ ظلّ هاجس الخرابة يسكن ذاكرة أهل الحي. ولقسوة الوحدة، تمكنت من استعارة أساليب حياة البوم، فقد دأبت على الخروج والعودة مع الغروب، متحاشيًا أيّ علاقة يُمكن لها أن تنشأ مصادفة.

يُجاور الفيلا مسجد يبث من ميكرفوناته صوتًا أشبه بخرير الماء المراق في هجير قائض، فتنتشر عذوبته عبر أوردة النفس كغذاء يشبع نهم النفوس القاحلة.

كان لإمام المسجد صوت شجي كأنّه أوتي مزمارًا من مزامير داوود.

"ألم يتنبه أحد أنّ معجزة النبي داوود هي عذوبة الصوت؟".

التزمت المكوث خلف ستائر النافذة المطلة على الشارع الغربي، وأبقى مشاهدًا تسلسل المصلين بخطوات مشبعة بالسكينة لأداء صلاتي المغرب والعشاء. أحيانًا أعزف عن المتابعة المتخشبة، وأسارع الخطى لأتسلل داخل المسجد مندسا بين المصليين غارسا نفسي في منتصف الصف الأول خلف الإمام مباشرة. كنت تواقا لسماع تلاوته، فله صوت يفتح كلّ مغاليق الأبصار ويقشط كلّ ما ران على القلب من درن. في إحدى انسلالاتي، كادت السماء أن تقع، فمع انبعاث صوت الإمام حتى شعرت أنّ جدران المسجد ونوافذه وسقفه وأبوابه ومصليه في حالة تسبيح، كأن الكون بجميع عناصره يهم بسجود البعض فوق البعض. كان الإمام – بين كلّ ركعة وركعة – يملأ صدره بهواء رطيب فتخرج الآيات كرذاذ المطر توشل على الأسماع بالرحمة. تفتحت أزهاير التسبيح في وجداني. انتفضت أطرافي كجسد ألقي في ماء بارد في ليلة قارسة، وظللت أرتعد طوال ما تبقى من الصلاة مرددًا: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}.

دخلت في هدأة التشهد، وما زلت أقف على الآية وسؤال ينخر رأسي ويزيح غشاوة لبستها لزمن وأنا أبحث عن تجسيد ثَنْوَى، مرددًا: "الماء سر الوجود".

للماء درجات حرارة وهيئات تشكل وسرع انصباب، ولكلّ حالة من تلك الحالات دور في خلق الكون.

أفاق المسجد بتسليم الإمام، فارتفعت التسبيحات والتهليلات. كنت راغبا في تفحص ملامح ذلك الإمام، لأقف على فمٍ تنحدر منه معجزة ذلك الصوت. كنت منتظرًا استدارته ليكون في مواجهة المصلين ومع اكتمال الاستدارة، سقط مني فؤادي.. لا يُمكن أن يكون هو! لم يحتج أيّ منّا تفحص وجه الآخر. إنّه قدّار بشحمه ولحمه. غرس بصره في وجهي. ومن بين تمتماته، خرجت كلماته كصرير حديد سحب على إسفلت: "ما الذي جاء بك؟".

يبدو أنني الوحيد من يسمع كلماته، فمن كان يجاورني غاصوا في تسبيحاتهم، كان تحفيزه ملحًا لمغادرتي المكان، ولم تكن عيوننا المنشغلة بتبادل اللوم والتقريع وحدها، فقد شاركتها عينا ساحر. لقد بحث عنّي طويلًا وتحديدًا منذ تلفظه بوعد على مسامع جدّتي أن يأتي ليصحبني بعد بلوغ السنة العاشرة.

وجدت نفسي متحفزًا للهرب، وقبل أن تُمسكني أيّ يد ممن تحلقوا حول هامتي، أخذتُ في التملص كأنني في جاثوم أنتظر الوهلة لإطلاق أطرافي من شللها. هي لحظات ووجدت نفسي أعدو خارج المسجد حاملًا كيس الطين المجموع من كلّ بقع الأرض.

***

مساء منشرح بنجومه المحدقة في ظلمة الليل وعينه تتربص بلهو نسائم الهواء المتلاعبة على رؤوس النخيل المصطفة على رصيف الشارع، فاضحة كثافة الغزل المهدر لسعفات لا تخفق كما يجب أن تفعله معشوقة.

كلما هربت من ملاقاة قدّار، أجده يثقب المكان والزمان لكي يصل إلي. لم أعد أعرف هل مات بعد اقتحام المسجد النبوي أم أنّه نجا من الاعتقال وتدهورت صحته بعد خضوعه لعملية استئصال الورم الخبيث... لو حدث هذا، فلا شك أنّه قد نجى من مخالب مرض شرس وعاد للبحث عني وإبقائي تحت نواجذه.

استرجعت الأحاديث والأخبار التي روجها أهالي القرية أنّ لقدّار عمر الرجل الصالح الذي صحبه النبي موسى.

في ليلة شتائية قارسة شحيحة الضوء، لها عواء الكلاب الضالة، انتشر خبر وفاة قدار، وتوافد الناس لرؤية ذاك الجسد الذي استعصى على الكهولة والموت معًا، وتبرع بعضهم بإحضار الكفن ولوازم الغسل، وظلوا وقوفًا أمام باب لم يفتح يومًا إلّا بأمر قدّار.

عاش وحيدًا ليس له نسل ولم يكن بحاجة أحد، فهو يتبضع وينتقل ويطبب نفسه – هذا إذا مرض – ويُواسي وحدته بقراء الكتب ومشاهدة الأفلاك.

انتظر المعزون خارج البيت وسؤالهم يحوم بينهم: سوف ينتن إن لم نفتح الباب.

ولم يتجرأ أحد على قفز السور أو كسر الباب، فظلوا في أماكنهم بين حديث واقتراحات ونفض ارتعاد موجات البرد، ومن أصابه الضجر أفل إلى الجهة التي تغيبه عن ذلك الخبر.

ومع بزوغ شمس كان قدّار عائدًا من رحلة قال عنها إنّه صعد إلى نجم الزهرة كي يأخذ من أرضه حفنة تعجل بحدوث حلمه.

انسحب المتجمهرون وليس في مخيلاتهم سوى تلاطم الحجب في سيرة قدّار.

وقد اختصم حاسر مع غالب موسى حول كرامات قدّار، فاشتط بينهما الجدل وانتهى بترسيخ جملة حاسر: "مثله مثل النبي الخضر. في كلّ زمان ومكان يفوح عرفه!".

وغمغم أهالي القرية على سر قديم سكن داخل قلوبهم كطرفه – تتأرجح بين التصديق والتكذيب – أنّ قدّارًا يوجد في كلّ الأزمنة.

تذكرت ما قيل عن تصنّم غريب أبو فاطمة منتظرًا استيفاء الإجابة عن سؤاله: "هل أنت خالد؟".

ذلك السؤال ظلّ معلّقًا من غير إجابة لكن الواقع يرشح بصدقيته، فقدّار دفن عشرات المسنين الذين يصغرونه سنًا، وهو كالريح لا تعرف له جسمًا قديمًا أو هيئة مستحدثة، مع كلّ جيل يتجدد شبابه. هذه الحيوية الدائمة المعتبرة كالمعجزة تخص قّدار، وتراهنوا أيّ شخص من الأهالي تصل ذاكرته إلى زمن وجود قدّار، وقد أعياهم التذكر، فلخص فايز العجمي ما يدور في أذهانهم قاطعًا ذلك الإعياء: "... كأنّه يمتص رحيق الزمن ليظلّ على ما هو عليه من نضوج البشرة وفتوة الجسد".

– أووووه... كانت تلك الذكريات غائرة في زمنها البعيد. وعندما رأيته داخل المسجد يتلو الآيات كأنّه أوتي مزمار داوود استطاعت الصدمة شل أعصابي – هذا في البدء – لكن رؤية الساحر فلقت هامتي كضربة فأس حاد النصل أُلقي على جذع شجرة متهاوٍ.

يُسيطر عليّ الهرب في مواقع مختلفة، ولا أجد ملاذًا سوى الركض وتصريف لهاثي بين الأزقة والشوارع الطويلة.

أنفاسي اللاهثة أوصلتني إلى جهة ضيقة من زوايا شاطئ انزوى بعيدًا. ألقيتُ بجسدي كيفما اتفق على رمال وفيرة الكثافة لها لمعة الفضة. وفي هدوء الليل المتخلص من ضوضاء المتنزهين، كنتُ قابضًا على كيس حرصت على حمله معي أينما ذهبت.

أدرت عيني في المكان. كان البحر مسترخيًا في هدأة الليل بعدما نسي تجشع سفن الظهيرة العابرة للأماكن النائية، واختفاء النوارس الشرهة باصطياد خيرات الأمواج المتدافعة. مددتُ قدمي لتُلامس موجًا متكاسلًا فسرت برودة ناعمة في أطرافي السفلى بينما عبثت يدي داخل الكيس المحبوك بألياف الكتان ذات السماكة العالية مسلطًا مصباحًا يعمل بواسطة بطاريات جافة فأشاعت حزم النور المتفرقة ما خبأته هناك.

كانت كتل الطين متجمعة بعضها فوق بعض متباينة الأحجام واللزوجة، جمعتها من أقاصي الأرض وعجنتها بصبري.

"هل أعيش كوابيس سوداوية؟".

ظهور قدّار إمامًا للمسجد وتلاوته آيات بعينها، هل هو كابوس أم حقيقة؟

كيف غدا هذا اللعين إمامًا وهو صاحب الصوت الأجش؟ ومن أين له بتلك العذوبة التي جعلت الشوارع والبيوت والأشجار في حالة تسبيح؟ كيف حدث هذا؟

في تلك الفيلا الخربة، كنت في موقعي – خلف ستارة النافذة – أسترق السمع لصوت عذب شجي لإمام يحبر تجوديه كأنّه يُذبح فيخرج أنينه بنفس محمحم في صعوده وهبوطه. وفي كلّ الصلوات الجهرية، أسترق السمع إليه حتى صعدت روحي رغبة في معرفة صاحب ذلك الصوت فإذا به قدّار!

ااووه في كلّ لحظة أعيش حيرة ما.

وبعد كلّ ذلك الركض أستطيع الآن نفي إصابتي بجاثوم أو أنّ أحلام اليقظة تعتريني؛ بل أستطيع تثبيت أنّ تلك الآيات ما هي إلّا إرشاد وتدليل أنّ أداة الخلق الأولى هي الماء الدافق. وهو السر المخبأ الذي لم أفطن إليه أثناء تجسيم تَنْوَى؟ فهل أراد قدّار إرشادي إلى ما سهوت عنه بقراءة تلك الآيات؟ وهل احتجت كل هذا الركض لأصل إلى هنا، ولماذا هنا؟

منذ صلاة العشاء وأنا أواصل هربي، لم أجد مكانًا أهنأ به. كيف لو مخرت عباب هذا البحر؟ أين أجد نفسي؟ لم أعد راغبًا في مجاورة كلّ هذه الأنفس القاطنة في تجويف صدري. ما هو تفسير قلة اتزاني؟ لا بدّ أن الشيطان ذاته يخالط هذه الأنفس المتشاجرة في أعماقي. ااوه الشيطان... الشيطان هذا المخلوق البائس كيف لنا تصويره كمعادل موازٍ لله. كيف؟ الله خلقه وأطلقه في الكون ليس كجسد وإنما كهوى، فالذي يجري في أوردتنا الهوى، هوى النفس، ولأنني مستقر ومكمن لأنفس عدة تنازعني الأهواء كان لا بدّ أن أتمزق وأتداعى كي أكشف عن تلون الأنفس التي تسكنني، أنا كون فيه مئات الأنفس وكل منها يتآمر على النفس المستيقظة فيني. من يجبر انكساراتي؟ من؟

***

أنا على يقين أنّ تَنْوَى هي القادرة على إعادة نفسي وطرد كلّ الأهواء الساكنة في صدري والقافزة دومًا إلى رأسي، فكيف آتي بتَنْوَى؟ هي مربط هذه الأنفس المنفلتة، وليس من حل سوى خلقها أو خطف نفسها في داخلي لتكون هي النفس المطمئنة.

{وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

شاغلني سؤال فاحم السواد: كيف أصل إلى الفلاح، هل بوابته تَنْوَى أم الأنفس المزروعة داخلي تكون محصلة مجموعها هو الفلاح؟ وهل فلاحنا بالإسراف في الهوى أم اعتدال أنفسنا وارتضائها بنفس واحدة للسيطرة على بقية الأنفس المجنونة في هذا العمق السحيق؟

سطح كلّ شيء هو الشرك الذي يبقينا في حالة استرخاء والرضى بما هو كائن في تصوراتنا الأولى.

كيف لو أنّ شخصًا يكشف للبشرية أنّه كون بذاته. ربما هذه هي معجزتي التي حلمت بها كثيرًا. قدّار أراد لي أن أكون المهدي المنتظر، فأيّ مهدي لا يقدر على قبض أنفسه المتزاحمة؟

استلقيت على رمال الشاطئ بحثًا عن نوم يغرق أو يشتت أطيافًا أعيش على تقافزها. في النوم، لا يبقى مني إلّا أنفاس الشهيق والزفير، ولا أعرف لأيّ نفس هي، ربما تفيق بقية "الأنوات" تفعل فعلتها في الواقع، وعندما أستيقظ أتلقى نتائج تلك الأفعال.

مسهد... مؤرق... مجافى... مقيم في سهري.

أوصد النوم أبوابه الصدئة أمام قرع أهدابي، فطال انتظاري، الانتظار هو الحافة التي تسقط منها إلى الواقع.

أغمضت عيني راجيًا أن أدلف إلى محيطات الفراغ فلا أعود ملزمًا شيئًا سوى ترديد الأنفاس.

كل شيء يُجافيني هنا: النوم، راحة البال، اليقين.

وكل شيء يدنو مني: الحيرة، القلق، الانتظار.

وقفت ثَنْوَى أمام الأبواب الموصدة ضاحكة: "ألا تُريد أن أكون بين صدرك وأنفاسك؟".

كانت تشرح لي الخطة الأخيرة لظهورها!

الليل مئزر للحكايات العارية.

كان قد مضى على هربي من قدّار والساحر ثلاث ساعات. وجدتُ نفسي أتلمس مخلوقات البحر التي سئم من حملها وتركها مقذوفة على الشاطئ: كائنات صغيرة رخوة، هلامية، لزجة، ومهما قست، فإنّ قوارضها لا تستطيع إبعاد من يتلهى برؤيتها أو يتربص بحركاتها متأملًا أو عابثًا. كائنات تُخرج شيئًا يسيرًا من ألغاز وأسرار الأمواج المتلاحقة.

أُنهك جسدي من كثرة ما أحمل. كنت مجهدًا، ولم يستجب عقلي للاسترخاء، فهو كجاسوس يُنبه كلّ الخلايا لتنشط وتُمارس فتح مغاليق الحيرة التي تعتريني.

وبين الحالتين، وقعتُ في فخ سؤال عصي يحوم حول كيفية إمكانية العودة إلى المنبت الأول، وكيف نتجزأ ونتلاشى... كان سؤالًا جائرًا لم يستوعب عجز نفسي اللاهثة المتناثرة بين حالات مستعصية الفهم. وأردت إفشال مخطط هذا العقل المتآمر بالنوم والغياب عن الكون، حضنت كيس الطين بين صدري وإضمامة يديي، وسبحت للوصول إلى أول محطة للنوم.

فجأة دهمتني يقظة مستفزة.

رأيت السماء تدنو حتى وقفت على رأسي ناشرة نجومها على الأرض كحبات البرد، وتبين نجم الزهرة لامعًا ضاحكًا يتغنج، وعلى أشعة نجم الزهرة، تولدت ثَنْوَى تتغنج كابنة ليل هاربة من فسوق قديم، تمددت على رمال الشاطئ مشعة كنور أسرف في عطائه، فأغلقت بضوئها كلّ ظلمة وتجسدت هامسة: "هَيْتَ لك!".

غمرني ضوء فاقع، وسكنتني الرهبة.

– هل أنا في نوم أم يقظة؟ هل صُعد بي أم خُسف بي؟

خامرني الخوف، وكلما أحسست بليونة الأرض أسفل مؤخرتي، تماسكت خشية أن تميد بي. كنت أبحث عن طمأنينة تبقي على رباطة جأشي. غدت السماء غيمة من نور عصرت كوكبها لتجمع كلّ تلك الإضاءة، رأيت النجوم تتقافز كرذاذ مطر انهمر بفجاجة، فتشعبت مسالكه وجرى فيضان من نور.

يزداد الضوء هبوطًا وتمددًا مخترقًا جسدي من رأسي إلى أخمص قدميّ. ينشر أطرافه حتى تغدو الأرض سماء. وتراقصت كلّ عضلة في بدني ودمدم وجيب قلبي، واتسعت حدقتا عينَي، وسكنت في أنفاسي رائحة طيبة. ودوّى همس ممتد منبثق من تموجات البحر: "الآن حصحص الحق!".

همس متواصل من ضوء تلبس جسدي كاملًا، وبصورة آلية، أفرغت الطين المخبأ داخل الكيس، وعجنته بالرمال الفضية النقية من كلّ دنس، موازيا رؤوس الأمواج المتدافعة القادمة من المجهول، واخترت المكان بعناية، يخامرني هاجس أني مقدم على مجهول ظل يتدافع داخل أنفسي المتشابكة ويلح بفعل أفعال خارج إرادتي.

"هل لكل نفس جسد؟ أم أنّ هناك جسدًا واحدًا لأنفس كثيرة؟".

أحسستُ أنّ الضوء يتلألأ في أعماقي وينفض كلّ الهواجس المشعشعة داخلي، فتطير كخفافيش فاجأها نور باهر في خرابة قديمة.

عمدت إلى تجسيد ثَنْوَى وثمّة يقين أن أحظى بها متزودًا بسر الماء الدافق.

مضى الوقت والنجوم تنير كلّ عتمة. وكلما مضيت في تجسيد ثَنْوَى، أحسست بنور ينبثق من قلبي.

مضى الوقت...

...

...

...

أجدت إتقان تجسيد ثَنْوَى حتى أنّها كانت على وشك أن تلفظ بكلمة "حبيبي".

الكلمة لعبت برأسي وتدلّت في أذني حتى أيقنت أنني أسمعها حقيقة لا مجال لإنكارها.

– هيت لك يا حبيبي!

هبّت نسمة عليلة ناشرة ريحا طيبة عمّت المكان، فانسلت يقظتي، ونزعت ترقبي. أحسست بعضلات بدني تتهاوى في استرخاء مديد مكّن أطرافي من الإحاطة بمجسم ثَنْوَى ودفع نوازع

الشوق عميقًا. رغبتُ أن ترتاح لهفتي بين نهديها. شممت رائحة طيبة تتغلغل في ثنايا الطين المسجى. ضممته إليّ فترقرقت ترائب ثَنْوَى، وأصدرت زفرة هانئة دافئة، فيما كان شلال من صوت عذب يحفزني: "هيت لك يا حبيبي!".

استسلمت لشواط من نار جرى في دمي، فنفرت عروقي لتوسيع قنوات عبور لهفتي، وتنادت الرغبة من كلّ فج عميق سكنت أعصابي، وتحفزت ملايين الكائنات المخبأة في خصيتي، وجرت في دمي بتوقيت واحد لإفراغ رغبتي التي تيبست ذات يوم. اجتمعت في حوض مثانتي وهي على أهبة الاستعداد للانطلاق، كأنّها جيش ملّ من الانتظار الطويل، وظلّ مترقبًا الإذن بشن حرب شعواء لتخليص جسدي مما علق به من شهوة.

كنتُ خارج الوقت، فتحول جسدي إلى غطاء لمجسم ثَنْوَى. ألصقت كلّ عضلة بما يقابلها، ففار التنور، تتابعت حركاتي كبحر مدّ موجه واسترجعه في آن.

وكلّما توغلتُ بعيدًا، ظل صوتها متدفقًا في أذني مطالبًا بإجادة الركض. ركضتُ كعداء عليه قطع مسافة طويلة من الرغبة. كان لهاثي يُقربني من بلوغ النشوة، وكلّما ركضتُ، ارتج نهداها تحت هزري لوركيها، فتلوذ تنهداتها بعصر جذعي للوصول إلى الأعمق من المتعة.

ومن ذلك الاحتدام المرتعش، فاض ماء دافق، ولدت صرخة عظيمة انتشرت في المكان حتى إذا لم يسعها، صعدت إلى الفضاء، فسكنت لها أمواج البحر، واستعادت السماء نجومها وأقلعت عن غيثها المنهمر بكثافة، وجرى ما تبقى من مائها منحدرًا في اتجاه الأعمق من محاشم ثَنْوَى. ساعتئذ اهتزت الأرض وربت، وتثنى الجسد المسجى بآهة طويلة، حينما تلقف حممتي بنشوة فائقة، فاستلقيت أرضًا لتغمرني حبات لمطر المتلاحقة وتنبت من حولي كائنات لها أزيز التقاء الليل والبحر واعتراك جسدين ليوصل كلّ منهما أمانة اللهفة على أطيط الأرائك المتقاعسة.

كدتُ أُجنّ عندما وجدت عنقي مطوقة بين ذراعين طريين وثَنْوَى تفيض بابتسامتها وتداعب ذقني، فلم أتمالك نفسي، فهزرت ذراعها، كم أصابني الخوف عندما وجدت ذراعها في قبضة يدي، اعتراني رعب ماحق، فركضت كما كنت: عاريًا يُنازعني الفزع الأكبر والحيرة الغامقة.

هل ما أحدثته على الشاطئ كان حقيقة؟

وصلت إلى البيت عاريًا، وما زال الحدث نابضا في مخيلتي، أكانت ثَنْوَى أم مجسمها الذي أوقعني في شهوتي، أحاول نفض مخيلتي فلا تستجيب وتمعن في معاودة تجسيد الأحداث التي مرت بي ليلة أمس.

ما زلت أشعر بطعم القبلات الشهية واختلاط أنفاسي مع أنفاسها وجريان ريقها في حنجرتي، وأحاطة ذراعيها لعنقي. ليتني أستطيع الإيمان بفكرة البرفسور سناء بخلق تعادل جيني من التفاعلات الكيميائية المخزونة في جسد الإنسان بفرعيه الذكوري والأنثوي. وهل ما فعلته البارحة كان البوابة الأولى للدخول إلى طفرة العلم وجنون الجين البشري؟

وإذا كانت ثمّة حقيقة علمية تشير إلى أنّ الإنسان مكون من جينات ذكورية وأنثوية، فهل ضاجعت نفسي، ضاجعت الجين الأنثوي في نفسي؟

ها أنا أصل إلى بعض ما غم علينا، فحقيقة العادة السرية ما هي إلّا التقاء الجين الذكوري مع الجين الأنثوي لمضاجعة الذات للذات، وبهذه الصيغة، ينتج الإنسان شهوته الذاتية من غير الحاجة إلى الالتحام بجسد آخر.

مليارات من الحيوانات المنوية تسفك في الهباء، ولو جمعت في حوض، لأنتجت بشرية لا تتسع لها الأرض. غدا سوف تحمل هذه المليارات إلى كوكب آخر، سواء أكان في الخلق الأول أم في الكائن الواحد المعبأ بمليارات من أُولئك الفسقة.

أعيش بمجاميع من الأنفس، منها المطمئنة ومنها اللوامة ومنها الأمارة، كلّ هذه التصنيفات، تحمل كلّ نفس مني وجودها المادي، فهل ثَنْوَى رابط لكل هذه النفوس المتقافزة في صدري كأنّها حبات فشار لا تستقر إلّا بعد أن تفسق؟

لعنك الله يا بروفسور سناء، هل كنت العابث الوحيد بمخيلتي؟ الخشية أن تكون إحدى الأنفس التي أجول بها في هذا العالم الضيق غير القادر على الانعتاق نحو فضاءات المخيلة التي تتمدد وتتضاعف كمتوالية هندسية.

ما هذا الضيق الذي يكبح جنوح البراق ليعرج إلى السماوات العلا؟

***

... وعندما تضع كائنًا في جوفك يكون هو كمال نقصك، ويصبح النداء عليه كلّما ابتعد هو الشعور بفراغ روحك منه.

ما قبل هذه الجملة من نقاط هي أحداث ركضتها في هذه الحياة حتى وصلت إلى قناعة ملء روحي بما ينقصها.

فحدث ما حدث.

الآن – بعد ليلة البارحة – أشعر أنني أتشظّى:

"ألم تكن تَنْوَى إلّا نفسي؟".

***

"لا عليك، كن جسورًا، فالحياة تُذعن لمن يثقبها".

هذه الجملة من الهواجس العميقة التي رسخت داخلي، وكلما تباطأ اختراقي السر المكنون، وجدته يهتف بي: "كن جسورًا ولا تتردد، فالحياة تُذعن لمن يثقبها".

وجدتُ اسمي ضمن قائمة الإرهابيين المطلوبين لجهاز الأمن العام. كلّ الصحف المحلية نشرت القائمة وأمام كلّ اسم صورة لصاحبها إلّا اسمي بقيتْ مساحة الصورة مُظللة لتُعطي أيّ متصفح إمكانية تخيّل أيّ الملامح يحملها ذلك الإرهابي.

قائمة المطلوبين التسعة المعلن عنهم بتاريخ 21– 4– 1437

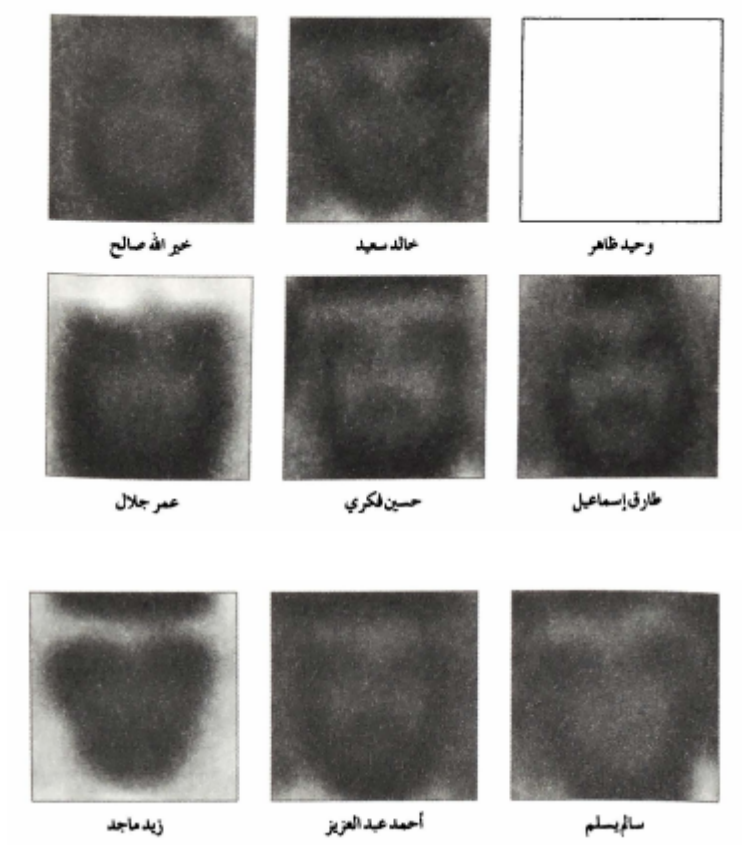

"وحيد ظاهر المطلوب الأول في القائمة، فهل هذا تشابه أسماء أم أنني المقصود؟".

نعم، لم أجد صورة أنتمي إليها، فألبوم الصور الخاص بي مكتظ بشخصيات عدة، وعندما أردت تحديد أيّ صورة تنتمي إليّ، عجزت تمامًا.

هل كان ألبوم الصور خاصًا بي حقًا؟

عجزت عن تحديد أيّ صورة أنتمي إليها، فدهمني خاطر فتك بمخيلتي قبل عظامي: هل كانت صور الألبوم هي مجموع الشخصيات التي تُشكل مجموعة الأنفس التي داخلي، أيّ أن كلّ صورة كانت تحمل ذاتها المنفردة أثناء تصويرها؟

***

"هل أعيش خيالًا أم واقعًا؟".

حياتي سلسلة من الغرائب، وها أنا أقف على حالة لا تخطر على بال أحد.

تلقيت استدعاء من المباحث العامة بضرورة المثول أمام ضابط تحقيق عرف بغلظة الطبع، وحِدّة تغيرات مزاجه. يده تسبق لسانه. تخصص في استجواب العائدين من أراضي الجهاد.

وفي مدة التوقيف القصيرة، علمت أنّه ذائع الصيت، ويكره المجاهدون المثول أمامه للاستجواب. كنت قد أغلقت ملف هجرتي الجهادية الدائمة التي بدأتها بأفغانستان وأنهيتها بسوريا، وأقسمت على دفن تجارب الحروب في صدري بينما ظلت طازجة في مخيلتي. وكلما طفت تلك الذكريات على سطح خاطري، أعصف بقاع مخيلتي لكي أشوش كلّ أزمنتها، فأنا لا أريد قول أيّ شيء عن تلك المعارك لكنّها غالبًا ما تطفو كمراكب الصيد المحطمة في عرض بحر قوض العابرين قبل سفنهم، يحيلهم إلى صرعى فلا يقوون على العودة أو الموت لتكون أمواجه سجنًا لا يغادرونه أبدًا.

أيّ فعل له نهاية ظاهرة، تلك النهاية لا تحتاج إلى شيء سوى الدفن، فإن لم تدفن، فستأتي دورة لاحقة تُجدد فيها ما كنّا نظنّه مواتًا. لذا يكون الدفن واجبًا، وعلينا إتقان تمامه. إنّ الدفن هبة إلهية، ولو أنّ كلّ حيواتنا المعاشة ظلّت حية تستنشق لحظاتها، فستنسف كلّ القيم والأخلاقيات عندئذ حتمًا، وسوف نبحث عن الموت وقبل ذلك عمّنْ يدفننا، فلذة الحياة بالموت.

قسم المباحث قبر لا نُريد المكوث فيه طويلًا، وإن طلبنا الموت وكرهنا الحياة. كانت عظامي تصفق وأنا أقفُ متلجلجًا أمام قسوة العميد عصام: "أين كنت؟ نحن نبحث عنك منذ مدّة".

– لم أُغادر منزلي.

أظنُّ أنني اختصرتُ جملته المتشعبة والطويلة في آن، فوجهه المحمر المعكوف الحاجبَيْن يُمكّنُ أنفه من عبّ هواء المكان فيتركك مقابله تبحث عن نسمة تزود بها رئتيك قبل الوصول إلى حالة الإغماء، وتُصبح كلماته كالتلقين الأخير لا تُمسك بشيء منها سوى شعورك أنّك في النزع الأخير.

– ماذا قلت؟

نشأ ارتباكي فجأة. لعل عينيه المتوهجتين المستفزتين كانتا سببًا في تعكير ثباتي، فقد أظهراننني كمن يتوكأ على عصا طرية العود.

– لا تقل إنّك لا تعرف سبب استدعائك؟

تخشبتُ، فأنا فعلًا لا أعرف سبب استدعائه. يبدو أنّه لم يغمض لها جفنًا، قاطعًا ليلًا طويلًا من السهر أمام وجوه مرتعدة وكلها خشية بما سوف تفعله يده أو أوامره. بقي قابضا على تجهمه ككلب شرس مهمته نبش أقوال المتهمين لاستخراج قطعة العظم التي يبحث عنها. تلك الشراسة لا يُمكن لها أن تكون طبيعة أصيلة وإنّما مكتسبة.

لم أكن عنصرًا فاعلًا في كلّ تلك المعارك التي خضتها بين ركام الأجساد المقتولة والقاتلة أيضًا. يُمكنني القول إنني كنت "مساعد مجاهد"، مجرد لاعب تورط في لعبة ولم يعد بمقدوره الخروج منها لأن المدرب الأحمق يرفض تغييره، فواصلت انتظار فرصة الانزلاق والعودة إلى رحم مدرجات الوطن.

في ليلة لم تكن على البال، وجدت منفذًا تسللت منه لأعود إلى حياتي التي أعرفها. كان ذلك المنفذ الانطلاق بسيارة مفخخة وتفجيرها في إحدى الثكنات العسكرية للجيش السوري المرابط حول الحدود التركية. وبدلًا من التوجّه لتفجير الحمولة ونسف الثكنة كاملة، أوقفتُ السيارة في نهاية المشوار وترجلت منها ثم بقيتُ ليومَيْن أسير في الليل والنهار حتى دخلتُ إلى مدينة تركية، ومن هناك استلمتني السفارة السعودية ورحّلتني.

الغريب أنّ مدة سجني القصيرة في المباحث العامّة تم احتجازي فيها كمجاهد عائد إلى أرض الوطن. هل قلت مجاهد؟ عفوًا. لا أعرف تحديدًا ما الذي حدث، فالوقائع تعبرني مشوشة، كلّ حدث يحوم في مخيلتي يتشجر باحتمالات عدة، فما أظنّه واقعًا معاشًا يتفسخ ويذوب ليس له أثر فيمن هم حولي، أو في أعماقي!

يخيّل إلي أنني عشتُ – لسنوات متعاقبة – دمارًا لكلّ مكان أطؤه. هل هناك من يصدق لو قلت إنّ السماء المليئة بالدخان والبارد والقصف هي من أجارتني من أرض يباب، فعدت إلى نفسي التي تستند على قدّار في كتابة تاريخها ومنشأها ومعاناتها. ربما أجد فرصة سانحة أرويها حالما أنتهى من مماحكة ضابط التحقيق.

ها أنا أجلس منفردًا في غرفة صماء ليس فيها من أثاث سوى مكتب وكرسيين، أحدهما لي والآخر لضابط التحقيق، وكل منهما مثبت برخام أطبق على القوائم بلحام ثقيل.

حرص الضباط أثناء التحقيق ألا يبقي أيّ أداة فوق سطح طاولته، فبعد أن تلقى العميد زيد ضربة قاضية أنهت حياته بواسطة ثلاجة شاي كانت تجاوره، بعد تلك الواقعة، خلت غرف التحقيق من كلّ شيء.

– متى عدت من سوريا؟

...–

– نرصد تحركاتك منذ زمن.

...–

(هل أنا من عاد أم أنّ السفارة السعودية هي من أعادتني إلى الوطن؟ هذا الارتباك بين الأحداث ربما حُمل نفسا أُخرى من أنفسي المتعددة العائدة من تلقاء نفسها).

كان المحقق يذرف الأسئلة من غير أن يجد مني أيّ كلمة. كنتُ على يقين غائم أنني حضرت كلّ المعارك الجهادية التي بقيتُ مغامرًا فيها لمدة ثلاثين عامًا وآخرها التسلل إلى سوريا عبر مدينتَيْ تل أبيض ورأس العين في تركيا. وكان آخر جهاد لي في الداخل المشاركة في تفجيرات شرق الرياض، وكنتُ في السيارة الرابعة المفخخة، واستهدفنا ثلاثة مجمعات سكنية لأمريكيين. وكنتُ معنيا بتفجير مجمع شركة "فينيل"، لكنني لا أمسك التفاصيل، فهي ذكريات غائمة تحوم في مخيلتي من غير أن تُعيرني شيئًا منها لأتفوه به على مسامع المحقق الذي أشعرني بالخجل لكظم غضبه حيال صمت مريع نفذته بإتقان، فكنت أستقبل طرطشة الأسئلة من غير التزين بكلمة واحدة حيال ما يضخ به فم العميد عصام من أسئلة.

دخل غرفة التحقيق عسكري له سحنة مهدمة، وخليق به أن يمضي مباشرة إلى قبره من غير أن تتساقط ملامحه المجهدة والمكابرة في مواصلة الحياة أكثر مما يجب. وقف العسكري حاملًا سجلًا ثقيلًا منتظرًا الأوامر، تبادل معه العميد النظرات، فأسرع العسكري إلى تجريد يدي من قفازيها، وتلطيخ أصابعي بالإسطمبة، مؤديًا التحية العسكرية ومنصرفًا قبل سقوط ملامح وجهه على حين غرة.

بقيت في مقعدي مجمدًا – بعد مغادرة المحقق وقبله حامل بصماتي – لا شيء يتماس مع الأمل. جو مشحون بالرعب يحركه ذاك الصمت المهيب، والتوقعات بالمصير الذي ستؤول إليه حياتي. ومن غير المتوقع، نهبني توتر مفرط إزاء ما أنا عليه من تشتت.

أمضيت ليلتين في غرفة ليس فيها منفذ سوى باب أغلق من الخارج بإحكام، وهواء متمدد لا يحمل إلّا الصمت، لم يكن يزعجني سوى ذلك الصمت، فالصمت ضجيج يفوق أعتى الأعصاب مقدرة على التحمل.

"كيف للإنسان تحمل ما لا يسمع؟".

حاولت اختراق الصمت لإحداث ضجة عبره، استرقت السمع، ركزت جيدًا لحديث الجدران، والسقف والطلاء، والفرش المتهالك، والبلاط، وحركة كيف يجول الهواء داخل الغرفة الضيقة، وطقطقة أصابعي، والشهيق والزفير. هذا الإنصات المرهق يمكن له خلق لغة لا يستمتع بها إلّا الأصم. تذكرت فيصل صنوجة حينما فقد سمعه حينما انفجر ماتور مغذي الكهرباء في الشركة، وبعد فقده السمع، لم يكن يروق له المقام إلّا بين ضجيج الماكنات والمواتير.

"هل ثمّة ضجيج داخل الصمت؟".

في صبيحة اليوم الثالث، سمعت مزلاج الباب يفتح، ويطل عليّ العسكري صاحب الملامح المهدمة، فأشفقت عليه من جمع تبعثر همومه داخل سحنته المهدمة.

– انهض! العميد في انتظارك.

احتفاء غريب أهاله العميد عصام عندما وجدني أقف أمام مكتبه، ونهض.

– من أنت تحديدًا؟

– حقًا لا أعرف.

– نعم أنت لا تعرف وأنا كذلك أنا لا أعرف، فأنت أول متهم لا أعرف كيف أدينه!

–...

– لكنك لن تنفذ، تأكد من ذلك.

قال جملته، وعاد إلى مكتبه كاشفًا عن نتيجة مقارنة بصماتي بالمطلوبين لوزارة الداخلية.

– من البارحة وأنا أقلب الاحتمالات فيما وصلني عن نتيجة بصماتك.

–...

– أيّ خديعة تمارسها؟

–...

رددت له دين الصمت المهول الذي أبقني أتجرعه داخل غرفة التوقيف. ظللت صامتًا، فهل يستمتع الآن بتلمس سماع وجيب قلبي، زفراتي، شهيقي؟

التزمت الصمت المطبق، ومع كلّ سؤال يلقيه على مسامعي، لا يجد له أيّ إجابة.

بعثرة أسئلته أوصلتني إلى حقيقة جديدة صعقت لها.

*** حانت لحظة صاعقة جَمدت عروقي بعد عروق المحقق، فأبقى على انكماش يديه وجحوظ عينيه وتسارع أنفاسه، والسرحان في فوضى الاحتمالات، استرجع طراوة مفاصله، والتفت نحوي: "هل تعرف نتيجة البصمات؟".

–...

– كلّ إصبع من أصابعك بصمة وحيدة، هل يعقل أن لديك عشر بصمات؟

–...

– هذه الخدعة لن تعبر بها من تحت يدي.

ضغط على جرس، سرعان ما استجاب له العسكري ذو الملامح المهدّمة. لم يكن العميد بحاجة إلى رد التحية العسكرية.

– أحضر أقوى مزيل تعرفه.

احتاج العسكري إلى بعض الوقت قبل أن يقف أمامنا حاملًا عبوة كلوركس.

– هذا أقوى مزيل.

ولم يتوانَ عن تنفيذ أمر العميد بفرك أصابعي عدة مرات وسحب يديي ليعفرها بغبار وضع في زجاجة لاختبار أخذ البصمة، وأعاد التجربة مرارًا للتأكد من أنه لا وجود لأيّ لاصق يؤدي إلى حدوث أيّ نسبة من الخطأ. غرس كلّ إصبع في الإسطمبة ملطخًا عشر ورقات كلّ واحدة منها حملت بصمة إصبع من أصابعي، وزفر العميد هواء ساخنًا آمرًا العسكري بصلف: "لا تعد إلّا ونتيجة تحليل البصمات معك".

أسرع الجندي لتنفيذ الأمر حتى أنّه نسي إلقاء التحية العسكرية وهو منشغل بتغطية وحمل عبوة الكلوركس التي فاحت منها رائحة نافذة. كانت عينا العميد تتموجان باتساع محاجرهما.

– ابقَ مكانك.

تذكرت عقوبة مدرس اللغة العربية عندما كان يتركنا وقوفًا طول الحصة كعقاب لمن لم يحل الواجب، ولم أحرص يومًا على حل أيّ واجب. بسبب تراخي المدرس، كان عديم الصرامة حتى غدا يشرح درسه وجميع الطلاب وقوف.

بقيت واقفًا، أقيس درجة رخاوة العميد الذي أعطى الإشارة بدخول أصحاب القضايا والمراجعين، وكانت عيناه تذهب وتعود إلى محطة وجهي كأنّه كان ينتظر مرور حافلة تقله في محطة مظلمة موحشة.

مضى وقت طويل قبل مجيء العسكري حاملًا نتيجة البصمات، فأُغلق الباب دون المراجعين، وعلى عجل فتح – العميد – ظرفا له لون الحليب، واستخرج التقرير، فأوعدته الصاعقة بأقل درجة من الحدة، وبقي في كرسيه تحت جاذبية الدهشة. وبعد وقت نهض متثاقلًا مقتربا مني جاذبًا يدي ليتفحص راحتيها، وكسقوط طائرة من ارتفاع شاهق هوى على ركبتيه حينما رأى انقسام راحتي يدي من غير تعرجات أُخرى.

– امضِ.

لم يزد على أمره المفاجئ شيئًا، فاخترقت الباب حين كان يرافقني العسكري ذو الوجه المتهدم لإعطاء بوابة السجن إذن الخروج.

لفح وجهي هواء بارد وأنا أعبر مبنى المباحث، وانشغلت بنفسي أستفتيها: "لماذا يخر كلّ من رأى راحة يدي ولا ينبس بكلمة؟ هل بها قوة سحرية؟".

*** تأكدت الحال. ها هو العلم الجنائي يؤكد أنني أسير بعشر بصمات، بعشر شخصيات، بعشر حيوات.

السؤال الذي يكاد ينخر رأسي: لماذا تركني العميد عصام المضي حاملًا كلّ هذه البصمات المتعددة؟ ألم يكن من واجبه الوقوف على هكذا اكتشاف أو تسجيل ملاحظة في كشوف التحقيق، ألم يكن حريًا به فعل ذلك؟

***

استقبلني هواء رطب وأنا أقف في شارع التوبة خارجًا من تحقيق شل كلّ مفاصلي، أسئلة كثيرة ضخت في مسامعي ولم يجد المحقق في فمي أيّ كلام يابس أو رطب. تطلعت إلى الجهة المقابلة لسجن الرويس ذي الأسوار المطلية باللون الأبيض الناصع، بينما هناك وفي الداخل سواد فاقع.

"داخل كلّ شيء نقيضه!".

***

لم يكن هذا الاستدعاء الأخير، فقد استدعاني لاحقًا مركز الشرطة وكانت هناك حادثة فاجعة.

6– ل

بهتّ عندما وجدت رجال الشرطة يقفون أمام الباب يتقدمهم عريف في مقتبل العمر.

– هل أنت السيد وحيد ظاهر؟

هززت برأسي موافقًا:

– عليك المثول في مكتب العقيد عمر.

ولم يمنحني فرصة لالتقاط أنفاسي، إذ تحرك جنديان من الخلف ليضعا القيود حشرًا بين الرسخ والمعصم غير عابئين بالألم الذي طفح على وجهي بسبب ضيق القيد وضغطه على وريدين نافرين.

كنت في أشد حالات الغرابة واختلاط المشاهد التي تموج في رأسي كهواجس ليس لها ميناء تلقي حبالها على مرسى هجرته البواخر.

هذه المرة جاءت خطيئتي من البحر، كأنّها موجة كانت تلاحقني حتى أوقفتها رمال الشاطئ.

***

في مركز شرطة البلد، وقفت مرة أُخرى أمام ضابط التحقيق المنتمي إلى ضباط الشرطة. كان أقل حزمًا وغلاظة من محقق المباحث.

– أأسمك وحيد ظاهر؟

أطلق سؤاله كطفل يراهن على إسقاط علبة كبريت في محاولة وحيدة بواسطة نبل ارتخى سيْره.

– أظنّ ذلك.

أحسّ أنّ إجابتي تُبطن تهكمًا، فاتخذ وجهه سبيل الغضب الموارب: "تظنّ!".

لم ألمه، فهو لا يعرف حجم المأساة التي أعيشها تخبطًا، ولم أعد واثقًا في أيّ وجود أوجد فيه، فلدي أسماء كثر ولا أحمل ملامح أنتمي إليها، كنت على وشك أن أقول له: أنا المهدي المنتظر.

حتمًا سوف يعيد سيرة الجنود الذين تخاطفوا جسدي على بوابة المسجد النبوي للقبض عليّ أو النيل مني.

– أين بطاقتك الوطنية؟

أدخلني هذا الضابط في دوامة جديدة، ماذا يعني ببطاقة وطنية، فأنا لم أحمل يومًا أوراقا رسمية، وربما سايرت قصة أنني أدعى وحيد وفق مشاهد تراكمت ووافقت، – مرغمًا – أن تكون قصة الجدّة صفية وتدًا ألجأ إليه إذا عصفت بي الأسماء والأماكن لكي أستقر نفسيا. وربما أراد قدّار أن أركن إلى حكاية الجدّة صفية وربما هي حقيقة عشتها وما زلت معلّقًا بها لكن أحداث وحي...د هي نفس واحدة من عشر أنفس.

– ماذا بك؟

تخشبي أمامه أفرز استفزازًا تعمد إظهاره علنًا، فمال لسانه إلى الحط من قيمتي، بينما طافت مخيلتي في اختيار أيّ الإجابات أثبتها!

هل أقول له أنا طالب الطب، لأجد سؤالًا مستفسرًا في أيّ كلية كنت أدرس؟ تذكرت قصة البرفسور سناء الباحث عن مصل يقضي على العقم... لا لا، فالحديث عن تجارب المعمل سوف يقودني إلى جريمة يُعاقب عليها القانون ولن أستطيع تبرئة نفسي أو الإتيان بالبرفسور، أم أقول له أنا جنّي جئت إلى عالمكم بسبب صراخ وبكاء طفل، أم أنا ابن القطن، ما زلت على يقين أنني معجزة لم يُكتب لها الخروج إلى الآن. كنتُ على وشك أن أقول له: أنا المهدي الذي انتظرته البشرية.

– هل أصابك الخرس؟

نعم، أجدُ نفسي في حالة بكم عميم نتجت حيال الأسئلة الباحثة عن تحديد من أكون، ولا أحد يُقدّر أنّ الإجابة تغدو عويصة في مثل حالتي. هل أذكر له أنني أُوقفتُ في المباحث العامة بتهمة الإرهاب وأنني شاركت في جميع عمليات التفجر والقتال في الداخل والخارج. لا لا، لن أقول له، فما زال رجال المباحث مرتجين من أنهم لم يعثروا على بصمة تدينني بتهمة الإرهاب. لماذا لا أقول له إنني أحمل أنفسًا عدّة، ولكلّ منها حياة، ولست مسؤولًا عنها، إذ تحدث أحداثها وتنقلني في مواقع لا أتذكرها تمامًا. حتمًا سوف يُجن هذا العقيد الذي يربو كرشه كسنام مائل لجمل هدّار، وفتحتا أنفه يستفزها الهواء فيظهر تأففَ من عبَّ شهيقًا عميقًا.

حدسي الأول أنّه أقل تجهمًا من ضابط المباحث تلاشى مع تبادل النظرات، فها هو يغدو كتنور نفخ كيره حتى يخرج من فمه لهبٌ تفوح منه رائحة العداء القذرة.

– عثرنا على امرأة تحمل بطاقتك الوطنية، فما علاقتك بها؟

امرأة! أتكون ثَنْوَى؟ أم ثمالة أم إحدى النساء اللاتي عبثت بهن وأنا أبحث عن ثَنْوَى. وقبل التورط في منزلق لا أعود منه، حثثت لساني على التحرك قليلًا حتى لو بكلمة واحدة من أجل دلق دلو من ماء على هذا التنور الملتهب.

– أيّ امرأة تقصد؟

أطلق سخرية لاذعة: "فقط هن النساء اللاتي بمقدورهن فتح الصدور المغلقة والأفواه الصامتة".

تمنيت لو بقيت على صمتي كي أتلذذ بحيرته أو أفك مغاليق حيرتي، وعندما وجدني عدت إلى الصمت، نهض من كرسي مكتبه ودار حولي متفحصًا انفعالاتي كمن يريد إصابتي بصاعق كهربائي: "امرأة تسير عارية ملطخة بالطين وتحمل وليدًا تُشير أنّك أبوه، من بطاقتك الوطنية التي تحملها".

لا شعوريًا أصابتني قشعريرة، ونزت من مخيلتي مناظر بطيئة التوهج كأنّها قادمة من زمن سحيق، ومع دوران الضابط حولي ودلق الأسئلة الساخنة التي لم أتبينها وأنا أستذكر منظر البحر وتساقط النجوم وهطول المطر وعناقي مجسم ثَنْوَى، لا أعرف لماذا استذكرت هذا الحلم؟ ربما لأنني فعلت فعلة مخزية، فعلة صببت فيها ماء صلبي بلا هوادة. نعم، كنتُ حيوانًا مفترسًا، خلعت كلّ قيمي ورصانتي وثيابي، وانطلقتُ تحت تساقطت زخات المطر متخليًا عن ملابسي. أركض في الشوارع عاريًا، فهل وجدت هذه المرأة بطاقتي المدون عليها اسمي وأرادت أن تحملني وزر الرذيلة؟ استدركت رباطة الجأش، وفتحت فمي من غير إدراك: "هل يحملني ضياع البطاقة الوطنية جريرة امرأة فاسقة؟".

شعرت بندم على مفردة "فاسقة"، لا أعرف لماذا، حاولت استرجاعها لكنها ثقبت أذن العقيد.

– الذي يوقعك في المساءلة اتهامها لك بأنّك والد الطفل الذي تحمله.

أنا الذي لا أعرف حقيقة وجودي، ها هما امرأة وطفل لا أعرف عنهما شيئًا يبحثان عن وجود لهما داخلي، هل سيضافان على حيرتي التي طفحت وتحولت إلى فيضان لا أعرف كيف يُمكن محاصرة مياهه أو تصريفه في قنوات تبقيني شخصًا طبيعيًا. ولو أنّ الأحداث التي أمر بها تأتيني ببراهينها وأدلتها القاطعة، لظننت أني مصاب بمرض نفسي يطلقون عليه ازدواج الشخصية:

– هل عُدت إلى صمتك؟

...–

– لا فائدة من إنكارك فالرسمة واحدة.

كنت متهيئًا لرصد أيّ عبارة يتفوه بها. لم أكن أنظر إلى عينيه إلّا لمامًا خشية الدخول في دوامة من البصمات والعجز عن فهم وجودي الحقيقي، لكن جملته الأخيرة عاثت في صدري تعكيرًا.

(ماذا يقصد بهذه الجملة، تمنيت لو أنّه يفصح فربما أتعرف على الوضع الذي وجدت نفسي متورطًا فيه).

لامس كتفه كتفي وظهرت من عينيه رغبة جذبي من ياقة ثوبي وإلقائي على الأرض لكي يشبع بسطاره من ركلي.

– سوف نواجهك بالمرأة؛ إما تثبت أنك غير مسؤول وإما أن نحيلكما على القضاء.

ي = 3–

للمرة الثانية، أُسجن في شرطة مركز الصفا. دفعني الجندي داخل القفص في غرفة متسعة بعض الشيء يشاركني مجموعة من المحتجزين ولكل واحد منهم قضية مختلفة، كان أحدهم نسخة أصلية عن قدّار، أخذ يتودد إليّ، حتى إذا استشعر مني أُنسًا: "سمتك سمة الصالحين".

كان المساجين قد تناقلوا تهمتي عبر العريف يحيى الذي دأب على دفع كلّ موقوف ذاكرًا تهمته على مسامع المحتجزين. وإذ لم يكن هناك من محتجز داخل غرفة التوقيف ينتظر قدوم أيّ نزيل ويخبره بقضية النزيل الذي سبقه إلى الحجز، كان صوته يحفز المحتجزين بورود أيّ موقوف وسماع قصته ليسري كلّ منهم على همّه.

التقط أحد المحتجزين جملة "شبيه قدّار" بنوع من الاستخفاف: "كيف تكون له سمة الصالحين وهو متهم بجريمة زنا ومُنكر أبوته لطفل ركزه في رحم امرأة ليخرج إلى الدنيا في لحظة أغضبت الرحمن".

اتسعت آذان المحتجزين حتى أولئك الذين لا يجيدون اللغة العربية. اكتفوا بتشكيل حلقة من السبابة والإبهام واختراقها بسبابة اليد الأُخرى. كان تمثيلًا فاضحًا سيئًا لتهمتي. في البدء، فعل تلك الحركة المشينة العريف يحيى لكي يفهم أيّ أعجمي ما الذي أوقفني بينهم.

"بعض أُولئك الكلاب ممن لم يسمعوا جيدًا ظنّوا أنّ تُهمتي مع صبي".

في صبيحة اليوم التالي، وجدت نفسي أقتعد سيارة الشرطة من الخلف موثوقًا بقيدين غليظين في الرجلين واليدين.

ساقني عسكري فاز بجمع الغباء وحده وتقلّده بجدارة. دار بي جميع أقسام المستشفى لكي يُوصلني إلى المكتب المقصود ليُؤخذ مني عينات عدة يحتاجها الطبيب الشرعي للوقوف على الحامض النووي ومقارنته بالتكوين الجيني لطفل المرأة العارية.

ألقى عليّ الطبيب نظرات مستفزة، محتقرة، ساخطة. ووقر في عينيه أنّ ما فعلته يُعد فعلًا مخزيًا ومعرّة تستوجب الإهانة حتى لو كانت من عين مبصرة بنتائج فعل الزنا. رممت داخلي بأنّ ردّ الفعل يكون دومًا منفعلًا حتى لو لم يصر الاتهام حقيقة بعد. وأول انفعال صدر من الطبيب: "أمثالك ممن يتعدون على المحارم تكون عواقبهم وخيمة!".

وأسلمني للعسكري الذي نشط لإعادة وسق القيدين الثقيلين بين الرسخ والمعصم.

لم أكن أتوقع أنّ اقتيادي إلى المستشفى سوف يحدث ظرفا مبهجًا في غرفة الاحتجاز حيث استقبلوني بالزغاريد والدق على جدران وقضبان الزنزانة صائحين ومترنمين بالأهازيج احتفالًا بمقدم العريس!

"شبيه قدّار" كان يقتعد الركن الأيمن المنزوي من غرفة التوقيف يرقب الأحداث بعينين قلقتين.

تقدم عامل هندي مؤذنًا لصلاة الظهر. كان صوته مشروخًا ككنداسة سيارة لا تمل من نفث دخان سام بكثافة منتظمة. نهضنا جميعًا لأداء الصلاة، وتزاحمنا على صنبور دورة المياه لنتوضأ. الوحيد الذي صرح بأنّه على وضوء كان شبيه قدّار، فسلم له الجميع أن يكون إمامًا لهم. وقفت خلفه مباشرة. لم يُسرّ قراءته جيدًا فكان صوته مرتفعًا بعض الشيء حتى أنّ المصلي يلتقط سمعه أجزاء من آيات أو من تسبيح أو تشهد.

ألقى تحية السلام واستقبل المصلين تسبيحًا وحمدًا وتهليلًا وتكبيرًا وشكرًا. وكانت عيناه ملتصقتين بوجهي لا تحيد عنه طرفة عين، ومال بمقدمة رأسه مخافتًا:

"لو دعوتك ثانية للظهور في صحن الكعبة هل ستفعل؟".

تأملت في ملامحه؛ هو قدّار لا شك، فوضعت فمي داخل صوان أذنه: "ولو ظهرت، هل تخبرني أين أجد ثَنْوَى؟".

دخلت قضية المرأة العارية إلى دهاليز الضياع.

تم انتداب طبيب شرعي للحصول على الحمض النووي DNA للطفل ومقارنته بالتكوين الجيني لدى وحي...د.

انصب الممرضون والأطباء في غرفة الفحص حتى أنّ جميع من كان داخل المستشفى من مرضى ومراجعين وإداريين وقفوا لتناقل الخبر. كانت الصدمات تتوالى من غير احتساب الأثر الذي تتركه كلّ عملية فحص على نفسية المشاهدين إذ اتسعت الاحتمالات ووصلت إلى نفق مسدود.

في البدء، ظهر الطبيب الشرعي ممتقعًا بسبب كلّ المحاولات التي أجراها للحصول على أيّ نتيجة ناصعة النجاح ليثبت أنّ ما أُوكل إليه أنجزه باقتدار. ظلّ عاجزًا عن كتابة أيّ نتيجة يُمكن له تضمينها في التقرير المنتظر تقديمه كدليل فصل في قضية ادعاء المرأة العارية أنّ طفلها ما هو إلّا ابن لوحي...د.

فالتحليلات التي أجراها للوصول إلى نتيجة لم تكن مرضية، فقد نهج الطرق الرئيسية لتحديد المادة المتحكمة بالصفات الوراثية سواء أكان ذلك بلون الشعر أو العينين أو كثافة العظام، وكلها حملت نتيجة عجيبة ليس لها علاقة بكائن حي، وإنما كانت نتائج تلتصق بالخامة الأولى لتشكل الإنسان من الطين.

بات الطبيب يعي بجلاء أنّ الطفل حالة نادرة، وأراد الوقوف على آخر فحص قبل الاستعانة بأساتذة علم الجينات، فقرر أخذ عينة من الدم، هذا القرار جعله يعبث في كلّ مكان من جسد الطفل بحثًا عن وريد أو شريان. كان فقط محتاجًا إلى قليل من الدم، فأعياه الأمر واستعان بممرضين وأطباء أكثر خبرة منه، وكل من استعان به عجز عن العثور على وريد أو أيّ شعيرات دموية.

تراكم الجميع داخل غرفة الفحص كلّ منهم يريد إثبات مهارته، لكنّ كلًّا منهم دخل التجربة وخرج منها حاملًا راية الفشل. وإزاء ذاك التعثر الفاضح استدعي كبير الجراحيين لسحب الدم من الشريان التاجي كحل أمثل بدلًا من تحويل جسد الطفل إلى لوحة إعلان تسجل أعداد الفاشلين داخل المستشفى.

تقدم كبير الجراحين مسفهًا بعض الممرضين والأطباء وإن كان راغبًا في تعميم الخفة والإسفاف اللذين يتميز بهما من سبقوه في سحب العينة.

وسرعان ما تراجع عن تهمة تسفيه من سبقوه، وأعلن فشله معتذرًا. ولكي لا يكون فشلًا ساحقًا، اقترح إحداث قطع عميق بعض الشيء للوصول إلى الشعيرات الدموية أو أيّ وريد مغروس بين اللحم والعصب. ونفّذ اقتراحه ليكون سخرية المجتمعين ولوم الأطباء على ما أحدثه من تشريح كامل لذراعي الطفل. فلم يستطع تحمل كلّ تلك السخرية اللاذعة، فتهور في تعميق التشريح وتنبه الجميع إلى أنه لا دم يسيل أو يترشح من جسد الطفل، فصاحوا: "هذا الطفل ليس لديه قطرة دم واحدة!".

– 8 = س

سحقًا لهذه النفس بعينها، فهي من وقعت في شرك ما لا يُمكن تصديقه. ولو لم تقع في ذلك الفخ، لبقيت مستترًا داخل تسعة أنفس!

بعد خروجي من سجن المباحث أحمل شهادة غرائبية أنّ لدي عشر بصمات مختلفة وضُعت في قائمة تجارب الأدلّة الجنائية.

لم يتركني العميد عصام أنتشي بإطلاق سراحي، ففي اليوم التالي استدعاني بحجة إغلاق القضية، وعندما وقفت أمامه أطلق أمره بغلظة: "لا تذهب إلى أيّ مكان قبل أن تُخبرنا".

ها هو العميد عصام يفيق من صدمة المفاجأة، فلم يمضِ سوى شهر حتى تم استدعائي من الشرطة، شهر واحد ظللت أستنشق الحرية فيه وذب التشويش عن رأسي. حاولت تذكر ما مضى من أيام، فلم أستشعر أنني كنت مراقبا رقابة لصيقة، ربما كنت داخل عيون رجال المباحث من غير أن أشعر. ربما، ويبدو أنّ استدعائي إلى مركز الشرطة لعبة إضافية للكشف عما أحمله من غرائب الأسرار.

"هل علموا أنني المهدي المنتظر؟".

هذا الزعم حفره قدّار داخلي، ثم ارتحل، وأنا ارتحلت إلى يقيني أنني معجزة. أغفلت هذه الحكاية وغمست نفسي في التركيز على الأنفس المتعددة التي أحملها، وها هي نفس واحدة – من جملة عشر أنفس – كانت سببًا رئيسًا للوقوع في فخاخ عنكبوتية كلّ خيط فيها أوهى من سابقه، فكيف لو فُتحت ملفات بقية الأنفس.

كنت غبيًا عندما وضعت قصة قدّار كحجر زاوية لوجودي.

هذه هي النفس التي تم اعتقالها في هذه الحكاية، بينما نفذت تسعة أنفس من كارثة الإمساك بها. لا بدّ أنّ تلك الأنفس تنظر إليّ بأفواه ملأتها القهقهة إذ إنها نجت من حماقاتي التي تورطت فيها مع قدّار وثَنْوَى.

***

لم يتمالك المحقق تباطؤ وصول نتيجة الفحص النووي، واستقبل مهاتفة الطبيب الشرعي بضيق متزايد: "ماذا تعني حاجتك بعض الوقت؟".

ظل صامتًا يتلقى الأخبار من سماعة هاتف المكتب، ومع كلّ لحظة، تتراخى عضلات وجهه وتتسع حدقتاه، ويقذفني بسهم من عينيه لقياس ثباتي. أحسست أنّ ثمّة أمرًا لا يُريد المحقق أن يصل إلى شيء منه، لكنّ تركيز إصغاءه غطى على فمه فخرجت مفردات وجمل تبدو مبتورة، لكنّ الخيال يُمكنه وصل الكلمات وتثبيته كجزء مما يتحدثان به.

– هل قلت أعدتم الطفل إلى أمّه؟

هذه الجملة تُعد تسريبًا وبوحًا عمّا أسفرت عليه المحادثة، وإن أبقت جزءًا غائبًا، فيُمكن سده بالاحتمالات. التفت إليّ المحقق، وبنبرة تحدّ: "هل لديك الاستعداد لمواجهة المرأة؟".

شعرت أنّ سؤاله يحمل تراجعًا تكتيكيًا، فلم أجبه، وإن أحسست أنّه استعجل تلك الخطوة.

– أستطيع إخبارك أنّ المرأة لا تُريد شيئًا سوى اعترافك أنّك والد طفلها.

...–

– لن يجدي الصمت طويلًا.

تمنيت إخراج جملة طويلة على مسامعه: الصمت لغة فردية يثرثر بها الصامت حيال ضجيج الواقع. هي الثرثرة في كلّ حين!

هل لدى هذا الضابط عمق ليفهم هذا الأمر؟

قرر الانتقال إلى إحداث المواجهة بيني وبين تلك المرأة التي تتهمني أنني والد طفلها. كنتُ تواقا لمعرفة أيّ امرأة تكون، وجرى في خاطري عشرات النساء اللاتي ضاجعتهن، فأيّ منهنّ لديها مقدرة الفضح. رمقتُ العقيد فرأيته ما زال متأرجحًا بين الغضب والتودد، وإن تغلبت عليه حالته الراهنة مظهرًا أنّه ممسك بغضبه السابق، لكنه أطلق تهديدًا مبطنًا خرج من فمه كالريق السائل: "لا تظنّ أنّ إنكارك سيُنجيك".

...–

– سوف نرى عمّا تُسفر عنه المواجهة.

***

على بوابة دار رعاية الفتيات، كان العقيد عمر يتقدمني بخطوتين. أبدى تسامحًا مباغتًا: "نستطيع العودة من هنا إن أقررت بنوّتك للطفل؟".

...–

– ماذا قلت؟

جريان خاطري بعشرات النساء جعلني أنشط في عرض من أتذكر منهن على مخيلتي، وأخال أنّ تلك المرأة إحدى النساء اللاتي غزوت شرفهن بحثا عن ثَنْوَى.

تقهقرت من جديد أمام سؤال هدم كلّ رغبة في الاعتراف ببنوة ذلك الطفل، لكنّ الرغبة الجامحة التي اعترتني في معرفة من هي صاحبة الاتهام جعلتني أباغت العقيد بطلب فاصل: "أريد رؤيتها منفردًا؟".

– لك ذلك.

***

في صالة ضيقة من صالات دار رعاية الفتيات، سلكت منحنيات عدة لأصل إلى هذا المكان. أجاور خطواتي العقيد عمر الذي طلب من مديرة الدار توفير مكان يجمع بين صفة الخلوة والتجمع (المخاللة)، فلم تجد سوى جزء من صالة سورت بألواح زجاجية كانت تؤدي فيها التوجيهات لفتيات الدار حين يجتمعن في طوابير طويلة لتلقي الأوامر.

وقفت داخل الصالة الزجاجية، بينما وقف العقيد في الجهة الخارجية المقابلة لمقعدي تمامًا، ومن على بعد، تلفلفت امرأة داخل عباءة وحثت قدميها على الإسراع، بينما كان طفلها يتدلى من على خاصرتها اليسرى، ودلفت داخل الحجرة الزجاجية، ووقفت مستندة على اللوح الزجاجي برعشة متسارعة اهتزت لها يدها الممسكة بعكرة الباب وطفلها.

– مَنْ أنتِ؟

...–

– أزيحي حجابك لأعرف مَنْ تكونين!

كانت حركتها بطيئة وقد ضاعف بطأها اهتزاز أطرافها. خطت في محاولة لترسيخ ثباتها، وأنزلت طلفها من على خاصرتها، وأرقدته على وسادة ألقيت كما اتفق وتبادلا الابتسام. وفي انحناءتها انكشف ذراع مبتور من غير استواء، فمدت خطوتها كثيرًا، وركزت قامتها لتوازي وقفتي مادة يدها السليمة لتمس ملامح وجهي، ومكثت تحدد حدود محاجر عينَيّ هابطة على شفتي وذقني. جفلت من ذلك العبث صارخًا: "مَنْ تكونين؟".

أبانت يدها المبتورة محاولة وضعها في راحة يدي، وبهديل حاولت فيه تغيير صوتها الطبيعي: "ألا تذكرك هذه بشيء؟".

ركزت النظر: يد لها بشرة صافية غدقة تتماهى طراوتها، طافحة رخاوة ملساء بضة، تتموج رهافتها نحو الأعلى من زندها وإن شوه انسيابية لدانة رسخها بتر جاء ككسر زجاجة أبقى لها نتوءًا حادًا يجرح من يظنّ أنّ فتنة صاحبة تلك اليد فيها قصور، بل سيطلق لمخيلته العنان ليُجيب عن سؤال يضعه لنفسه: كيف ستكون المخابئ العميقة لتلك المرأة!

كان استفسارها ما زال حاضرًا: "ألا تذكرك هذه اليد بشيء؟".

واستدارت إلى طفلها، وحملته على جذعها: "وهذا، ألا يُذكرك بشيء؟".

طفل جميل المحيّا رقيق التبسم له وسامة مبكرة تصعد إليها من تكسر أهدابه واتساع وحور عينيه، تمنيت لو أنني أمتلك وجه هذه الطفولة الريانة. مررت يدها السليمة على وجه طفلها وأمعنت هذه المرة بابتعادها عن صوتها الطبيعي فظهر صوت أقرب إلى اللغة العجمية: "ألا تُذكرك ملامحه أنّه حبر ملامحك بإتقان وكان أمينًا على حملها؟".

(ماذا تقول هذه المرأة؟ هي تراني متقاربًا متشابهًا مع ملامح طفلها، هي تقف على أول نقطة لتعرفني على النفس التي تورطت معها).

تذكرتُ ما قاله العميد وهو يسكب أسئلته: "لا فائدة من إنكارك، فالرسمة واحدة".

(من هي هذه المرأة؟ حاولت جاهدًا زم ذاكرتي وفق عمر الطفل، وإذا كان عمره سنتين أو ثلاثًا... لم أقم علاقة بأيّ أُنثى، فمن تكون هذه المرأة؟).

– اكشفي عن وجهك لأتعرف إليك؟

صدرت منها آهة عميقة، وتكومت داخل عباءتها وهي تتفحص الجدران الزجاجية والعيون المبثوثة من كلّ الزوايا، كنتُ أظنّ أنّ من يُشاهدنا العقيد عمر ومديرة دار الرعاية فقط، ولكن

عندما دققتُ النظر، فإذا بخلق كثر قد أرسلوا عيونهم من جميع اتجاهات البيت الزجاجي، كأن الموجودين فيه فئران تجارب الكل يريدون الوصول إلى معرفة ما يفعله فأران وجرذ.

عيون عدة مسكوب نظرها علينا، فلمحت عيون قدّار وحاسر وجدتي وأبوَي وخالتي ضامية وبلال وريحانة والعميد عصام والعقيد عمر... وطبيب التشريح والبرفسور سناء.

اتسع العالم من خلف الزجاج لأرى توافد أهالي قريتي وحمحمة المناصرين للمهدي المنتظر وتزاحم العساكر وخندقة قواد المعارك الذين خضت معهم حروبا طاحنة.

كان الهرج والمرج قد ساد خارج الصالة الزجاجية. نشطت مجموعة المناصرين في إحداث حركة متموجة، وألصقوا أجسادهم بالزجاج كأنّهم في حالة تبتل وتضرع، وتدافعوا كموج أرخى زبده، ليعاودوا الكرة مطلقين التوسلات بدويّ: "اخرج أيّها المهدي، فالعالم يتداعى!".

أحدق هنا وهناك بحثًا عنها، ففي تلك المجاميع لم يكن لتَنْوَى حضور، وهذا يعنى أنّها لم تشارك هؤلاء السخرية مني. حمدت الله أنها ليست بينهم.

ارتبك المشاهدون خارج الصالة الزجاجية، وزادت حركات الاستهجان وانتشروا في حركة جماعية انضمت إلى فئة المناصرين: "ما الذي حدث؟".

شاغلني ارتباك وانفتح خزان الأسئلة: ما هذا الجمع، ولماذا حضروا بهذه الكثافة، هل تمّت إدانتي بالانتماء إلى "القاعدة" أو "داعش"، أو أنني فعلًا فأر أُجريت عليه تجارب عدّة وكلّ حاضر منهم شارك في التجربة المخبرية، وجميع المشاهدين هم ممن وضع قشة في بنائي العشوائي، فجاء كلّ منهم ليعرف كيف غدت هيئة القشة التي وضعها.

كانت عيناي منشغلتين بالمرأة الملفوفة في عباءتها وحركة المجتمعين خارج الصالة الزجاجية. كنت مرتبكًا بينما لا يزال صنبور خزّان الأسئلة مفتوحًا.

"هل أُعدُّ من العجائب الطبية الحديثة؟ وهل كنتُ الحيوان المختبري الوحيد لدى "مؤسسة البحوث الطبية الحيوية" (FBR) والآن تعرض التجربة للأعضاء للكشف عما أحدثه فأر التجارب.

كنتُ معلّقًا بين نظراتي إلى المرأة الملتفة داخل عباءتها وبين جسد طفل تم تشريح ذراعيه فظهرت على هيئة أخاديد لم تبن عظمًا ولا شحمًا، كأن ثمّة شفرة جرت في كومة طين.

– ما الذي يحدث؟

لم أكن عالمًا بما يحدث في الخارج ولم أستطع إجابة تلك المرأة، قد مضى وقت كأننا على بوابة ليل تهدّلت نجومه، وكما طرأ في البال مفردة الظلام، ازدادت الإضاءة في القفص الزجاجي وأظلمت في الخارج.

"هل مضى الوقت وأوغلنا في انعطافات الليل فنام كلّ شيء مكانه وبقيت سجينًا لتربص عيني تلك المرأة المتوجسة؟".

كأن دهرًا ردمني، ودهرًا أحياني، وبينهما ضياع لا أعرف كيف الفكاك منه.

ارتعشت تلك المرأة واستفحل بها ارتعاد سرى بين ثنايا بدنها، أحسست بذلك حينما اختلجت أعماقي لسؤالها: "ألم تتذكرني بعد؟".

خشيت إطلاق اسم من الأسماء التي عرفتها فتكون النتيجة وخيمة، فحاولت المداراة: "كيف أعرفك وأنت مغطاة تمامًا؟".

صدرت منها ضحكة: "كان على قلبك معرفتي مباشرة، هذا إذا كنت مولعًا بي كما تقول".

لم أولع بامرأة سوى ثَنْوَى، فمبال هذه المرأة تسوق يقينًا بمعرفتها بي.

– حسنًا، ما دمت لا تحب إلّا بالعين فستراني.

...–

بقيت جامدًا صامتاً فنهض صوتها: "ستراني لكن الندم سوف يلاحقك ما تبقى لك من عمر".

صمتت كأنّها راغبة في أن أتراجع عن رؤية وجهها، ولم أكن قادرًا على دفع فضولي بعيدًا عن هذه المماحكة.

– آخر ما سوف أسألك: ألم تعرفني؟

...–

كان جسدها يلوب بيني وبين طفلها، ووجهها يتحاشى الإضاءة المتزايدة حولنا، ولأول مرة، يخرج صوتها الطبيعي فيغوص في أعماقي كشهاب يبحث عن التلاشي.

– قمت من الطين لأنّك أحببتني، وسأعود إلى الطين غير آسفة.

أزاحت عن وجهها...

...

...

هويتُ على الأرض معلّقًا بصري في وجهها:

– أأنت... أأنت؟

وكمن جُلد بسوط جارح ألصق بطرفه رؤوس مسامير مدببة، كانت الصدمة مهولة الذهول، وقبل أن أمدّ يدي إليها احتضنت طفلها بين ذراعيها وانهارت ككومة طين فاتر استحال إلى تراب في لمح البصر. لم أستوعب سوى ارتفاع نحيبي:

ثَنْوَوووووى ثَنْوووووى ثَنْوووووى حققت للمشهد بعين ثاقبة، فلم يبقَ سوى كومة تراب وعباءة وملابس طفل.

"هل حقًا أنّ ثَنْوَى وولدها غابا في جوف الرمال؟".

بقيت مرميًا تحت أضواء كاشفة، أضواء كأنّها كانت تبحث عن جرم سماوي ضل طريقه فجئت لحمله، وعلى صوت تذكير إمام المسجد: "الصلاة خير من النوم"، تحاملت على نفسي وكفكفت ثوبي وملأته بالتراب المسفوح على أرضية ملساء حاملًا عباءة وثلاث قطع من ملبوسات لطفل لم يبتسم، وتهاديت خارج الصالة الزجاجية، دفعت البوابة، وخرجت، ولم يكن هناك من أحد.

للتواصل مع الروائي:

Abdookhal2@yahoo. com @Abduhkhal

نبذة حول الكتاب

تحت عناية الجدة وحين ادعت أنها تعلم بما لا يعلم به الناس، يمضي وحي...د باحثًا عن نفسه، هو الذي ينتظر يومًا تتجلى فيه معجزته.

وأول فاتحة له قوله:

«أنا عاجز عن تعريفكم بنفسي.

ولو عدت بكم إلى الماضي، فسوف أجد عشرات الحكايات أو أكثر من ذلك، تمثل كلّ حكاية حياة عشتها، هذا إذا كان لي ماضٍ حقًا. عشت حيوات عدة وكل منها أؤمن بها، بل أكاد أقسم أنني عشت كلّ تلك الحيوات.

سأبدأ بأحد أوجه الماضي الذي سوف أثبته هنا كحقيقة عشتها على الأقل، ويُمكن لي أن نصل إلى حالة تواشج أُقيم بها صلب حكايتي بغض النظر عن ماهية تلك الحياة».

قيل في الكتاب

* حازت روايته «ترمي بشرر» جائزة بوكر 2010

* حازت روايته «لوعة الغاوية» جائزة أفضل رواية لكاتب سعودي 2013 عن المؤلف عبده خال كاتب وروائي سعودي.

Contents

مكتبة Telegram Network 2020
أنفس
60 = ف ظهرت عارية تمامًا...
***
90 = أ
6 = ل
30 = ه
***
1
***
2
3
4
***
***
***
***
***
5
6
***
***
7
***
8
9

***

***

***

10

***

11

***

م = 4

***

***

ه = 30

***

أ = 90

***

***

ف = 60

***

***

12

***

***

ج = 80

***

و = 40

ر = 5

***

***

13

ه = 30

14

***

***

***

***

***

***

15

أ = 90

و = 40

***

***

ث

***

ن

***

و

***

ى

ت = 13

***

ق = 50

***

***

***

***

***

***

***

***

و = 40

أ = 90

ه = 30

***

***

أ = 90

–90 = أ

***

***

ب = – 7

***

***

***

–6 = ل

***

–3 = ي

16

– 8 = س

***

***

***

نبذة حول الكتاب

قيل في الكتاب